عبد القادر عودة

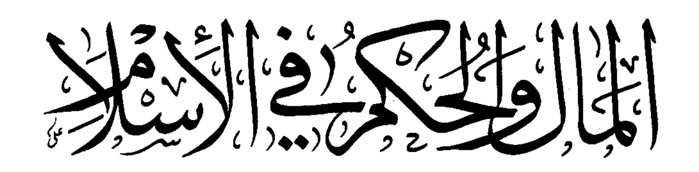

الدار السعودية
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى : القاهرة : ١٩٥١م
الطبعة الثانية : بغداد : ١٩٥٦م
الطبعة الثالثة : جدة : ١٩٦٩م
الطبعة الرابعة : بيروت : ١٩٧١م
الطبعة الخامسة : جدة : ١٩٨٤م

الادارة: جدة ـ البغدادية ـ عمارة الجوهرة ـ الدور الثاني ـ شقة رقم ٧ ـ ١٢
● تليفون ٦٤٣٢٨٢١/ ٦٤٢٤٠٤٣
● تلكس ٤٠٤٣٥١ نشرأ ● ص . ب ٢٠٤٣
المكتبة : شارع الملك عبد العزيز ● تليفون رقم ٦٤٧٨٧٢٣
المكتبة : شارع فلسطين ـ مركز الزومان ● تليفون ٦٦٠٨٩٦٤

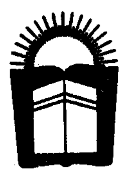

الدمام : الشارع العام ـ ص . ب ٨٩٩ ● تليفون رقم ٨٢٣٥١٥/٨٣٣٥٥٢٠
الرياض : السليمانية ـ ص . ب ٩٤٧٣ ● تليفون : ٤٦٤٧٥١٥/ ٤٧٦٩٠٨٦

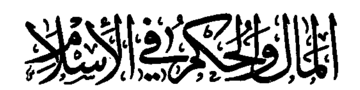
المال والحكم في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

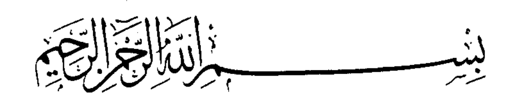

﴿ ولتكنْ منكمْ أُمـةٌ يـدعـونَ إلى الخيـر ويـأمرونَ بـالمعـروفِ وينهـون عن المنكـر وأولئك هُمُ المفلحون ﴾

[آل عمران : ١٠٤]

❝

﴿ قُل هذه سبيلي أدعُو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبـعني وسبـحـانَ الله ومـا أنـا مِنَ المشركين ﴾

[يوسف : ١٠٨]

مِنْ نُورِ كِتَابِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

* وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون .
* ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون .
* ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا .
* ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً .
* يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي الى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي .
* من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً .

صدق الله العظيم

تقديم المؤلف

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

« وبعد » فان المسلمين في كل أنحاء العالم قد جهلوا الإسلام وانحرفوا عن طريقه الواضح ، حتى لم يعد في الدنيا كلها بلد يقام فيه الإسلام كما أنزله الله ، سواء في الحكم والسياسة ، أو الإقتصاد والاجتماع ، أو غير ذلك مما يمس مصالح الأفراد والجماعات ، ويقوم عليه نظام الجماعة ، ويدعو إلى صلاحها واسعادها .

ولقد ظل المسلمون ينحرفـون عن الإسلام حتى هجـروا أحكـامه ، ثم اتخـذوا لأنفسهم أحكـامـاً تقـوم على أهـوائهم ومنـافعهم ، فأدى ذلـك إلى التحلل والفساد ، ومـلأ بـلادهـم بالشرور والآثام ، وعاد على جماعتهم بالبؤس والشقاء .

وفي ظلال هذه المحنة التي امتحن بها الإسلام نبت دعاة الإسلام الحقيقيون فدعوا الناس إلى الإسلام الصحيح ، وربوا الشباب عليه ، وجعلوا كل مسلم داعية إلى الإسلام بعمله وقوله وسيرته ، وصبـروا على ما امتحنـوا به حتى فتـح الله عليهم ، فـانتشر الـوعي الإسـلامي ، وتيقظ المسلمـون ، وتحقق ذوو البصائر أن لا حياة للمسلمين بغير الإسلام ، وأن صلاح حالهم وسعادة جماعاتهم لن تكون إلا اذا رجعوا للإسلام وأقاموا أمرهم عليه ، وحكموه في كل شؤونهم .

والمسلمـون اليوم أحـوج ما يكـونون إلى معـرفة حقـائق الإسلام وقد تكالب عليهم الاستعمار والشيوعية ، وزُينت لهم الـديموقـراطية والاشتـراكيـة ، ليعلمـوا أن لا عـاصم لهم من الاستعمـار والشيوعيـة إلا الإسـلام ، وأنـه لا يحقق العـدالـة والمساواة والحرية في بلادهم إلا الإسلام .

وواجب كـل مسلم مستطيـع أن يبين للمسلمين مـا خفي عليهم من أحكام الإسلام ، وأن يعرضه عليهم في لغـة سهلة

يهضمونها ، وفي أسلوب عصري يقبلون عليه .

واني لأرجو أن أكون قد قدمت للمسلمين في هذا الكتاب ما يجب أن يعلمه كل مسلم عن نظرية الإسلام في الحكم ، وأسلوبه في الشورى ، كما أرجو أن يعلم المسلمون بعد الاطلاع على هذا الكتاب أن أسلوب الإسلام في الحكم هو خير ما عرفه العالم وأن كل نظريات الشورى الوضعية ليست شيئاً يذكر بجانب نظرية الإسلام .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً إلى الخير ، وأن يجمع كلمتنا على الإسلام .

عبد القادر عودة

الخَلق والتسخير

- هذا الكون خلقه الله .
- هذا الكون مسخر للبشر .
- البشر مسخر بعضهم لبعض .

هذا الكون خلقه الله

هذا الكون الذي نعيش فيه ونعمره ، ونتسلط على ما فيه من حيوان ونبات وجماد ، ونحاول أن نحصل على ما فيه من خيرات ، ونستغل ما فيه من قوى ، هذا الكون ليس من صنع البشر ولا من عمل أيديهم ، وما في استطاعتهم خلقه ولا خلق ما دونه ، وما كانوا في يوم من الأيام أهلاً لذلك ولن يكونوا ، فما هم إلا بشرٌ خلقهم خالق كل مخلوق ﴿ بلْ أنتم بشرٌ ممَّن خَلَق ﴾ [المائدة : ١٨] وما في قدرة المخلوقات أن تخلق ولو تظاهرت على الخلق ، ولو اجتمع كل البشر على أن يخلقوا أحقر الذباب وأضعفه لعجزوا ، ولو سلبهم أضعف الذباب وأحقره شيئاً لما منعوه عنه ولا استنقذوه منه ﴿ ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له وان يسلُبهم الذُّباب شيئاً لا يستنقذوه

منه ضعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : ٧٣].

هذا الكون الذي نعيش فيه ونعمـره خلقه الله الـذي خلق الناس من تراب ثم سواهم بشراً وصوَّرهم ذكوراً واناثاً فأحسن صورهم ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لعلهم ينظرون ويتفكرون فيذكروا نعمة الله عليهم ، ويشكروه على ما خلقهم ورزقهم وأسبغ عليهم من فضله ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً ﴾ [فاطر : ١١]. ﴿ يا أيها الانسانُ ما غرَّك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبَّـك ﴾ [الانفطار : ٥ ـ ٨]. ﴿ وصـوَّركم فأحسن صـوركم ﴾ [غافر : ٦٤]. ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [النمل : ٧٨].

هذا الكون الذي نعيش فيه خلقه الله جل شأنه خـالق كل شيء مما نعلم ومما لا نعلم ، ومما ندرك ومما لا ندرك ، ومما نستطيع تصوره ومما نعجز عن تصوره والإحاطة بكنهه ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾ [الانعام : ١٠٢].

فهو الذي خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات ، وما بينهما من أجرام لا يحيط بها العلم ، ولا يدركها الوصف ، ولا يحصيها العد ، وهو القادر على أن يخلق غيرها ان شاء ، إذ

الخلق متعلق بمشيئتـه ، وراجع لأمـره ﴿ ولله ملك السمـواتِ والأرض وما بينهما يخلقُ ما يشاء ﴾ [المائدة : ١٧]. ﴿ لله ملك السموات والأرض وما فيهنَّ ﴾ [المائدة : ١٢٠] .

وهــو الـذي خلق الأزواج كلهــا من النبــات والحيــوان والإنسان ، ومما نحيط بعلمه ومما لا نعلم عنـه شيئاً ، ورتب على اتصالها اللقاح والاحبال فـالاثمار والانسـال حفظاً للنـوع واستبقاء للحياة ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلهـا مما تُنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [ياسين : ٣٦] .

وهـو الذي جعـل الظلمـات والنور ، وخلق الليـل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهـو الذي ربط الـظلمات بـالليل ، والنور بالنهار ، وجعل الشمس دليلاً على النهار ، وجعل القمر والنجوم لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : ١]. ﴿ هـو الذي خلق الليـل والنهار والشمس والقمـر ﴾ [الأنبياء : ٣٣] .

وهو الذي خلق الموت والحياة ، وجعل بعد الموت البعث والنشـور ليبلو الناس فيمـا آتاهم وليجـزيهم بما كـانوا يعملون ﴿ الـذي خلق المـوت والحيـاة ليبلوكم أيكم أحسن عمـلاً ﴾ [الملك : ٢] .

هذا الكون مسخر للبشر

والله الذي خلق هذا الكون قد سخره لخدمة البشر وسلطهم عليـه بما وهبهم من أبصـار وأسماع وعقـول تسـاعـدهم على استخدام ما في الكون من خيرات ، واكتشاف ما فيه من قوى ، واستغلال ذلك كله في سبيل نفعهم واسعاد أنفسهم ﴿ الم تروا أن الله سخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة ﴾ [لقمان : ٢٠] .

فالله قد سخر للبشر ـ وهم يعيشون على وجه الأرض ـ كل ما في السمٰوات وما في الأرض ، وكل ما في البر وما في البحر ، فالسحاب مسخر لخدمتهم يحمـل الماء المتجمـع من البحار والأنهار ثم يرسله مطراً يحيي به الأرض بعد موتها ، ويُنبت فيها من كل الثمرات رزقاً للعباد ، والبحار والأنهار مسخرة لخدمـة البشـر ، منها يتكـون السحاب ، وعلى مـائهـا يعيش النبـات والإنسان وكل الحيوان ، وعليها تسير الفلك تحمل الناس إلى بلد لم يكونوا بالغيه بغيـرها ، وفي أعمـاقها تعيش مخلوقـات أخرى يتخذ منها الناس طعاماً وحلية ، والشمس والقمر مسخران لخدمة البشر ، يمدان الكون بالضوء والحرارة ، وهما ضرورتان من ضرورات الحياة ، وكل ما في الكـون من صغير وكبيـر ، ومعلوم ومجهـول ، مسخـر لخـدمـة البشـــر ، لهم الحق في

استطلاع أسراره والسيطرة عليه ، واستغلال منافعه ما استطاعوا لذلك سبيلاً ، فالكون مذلل لهم بإذن الله ، وهم مسلطون عليه بأمر الله ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما في السمٰوات والأرض جميعاً منه انَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [الجاثية ١٢ ، ١٣]. ﴿ اللَّهُ الذي خلقَ السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخرَ لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخّر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الإنسان لظلومٌ كفَّار ﴾ [ابراهيم : ٣٢ ـ ٣٤] .

البشر مسخر بعضهم لبعض

وإذا كان الله جلّ شأنه قد سخّر الكون للبشر ، فإنه قد سخر بعض البشر لبعض ليستطيعوا أن يعيشوا في جماعة منظمة متعاونة ، وليكونوا أقدر على استغلال الكون المسخر لهم والانتفاع بخيراته ، والمساهمة في بناء حياة انسانية مرضية ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

ومـا سخّـر الله بعض البشـر لبعض إلا لتتم حكمتـه فيهم وليبلوهم فيما آتاهم ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ومن كفر فعليه كفره ، ومن آمن نفعه ايمانه : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب وأنه لغفور رحيم ﴾ [الانعام : ٦٥] . ﴿ هو الذي جعلكم خلائف الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يَزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ [فاطر : ٣٩].

ولم يجعل الله تسخير بعض البشر لبعض قائماً على التحكم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وانما ربط التسخير بطبـائعهم وظـروف امكـانهم ، فجعلهم درجـات بمـا اختلفــوا من قـوة وضعف ، وعلم وجهل ، وجد وخمول ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف المشتقة من طبائعهم ومعارفهم وظروفهم وبيناتهم ، ولن يمنع ذلك من كان في درجة دنيا أن يرتفع بعمله وايمانه الى درجة أعلى من درجته وأن يصل الى القمة في عشيرته وأمته ، فان العبرة في الاسلام بـالأعمال والايمـان ، ولن يضيع الله عمـل مؤمن : ﴿ اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ [آل عمران : ١٩٥]. ما دام العامل قد أحسن عمله ووصل بـه الى درجـة الاحسـان : ﴿ انـا لا نضيـع أجـر من أحسن عمـلاً ﴾ [الكهف : ٧٠] .

ولقد آلى الله على نفسه ليحيين حياة طيبة كل من عمل عملاً صالحاً وهو مؤمن فقال جل شأنه : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [الأنعام : ١٣٢]. ودعا الله المؤمنين الى العمل وحثهم عليه : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ [التوبة : ١٠٥]. ورتب على العمل درجاتهم ، فمن رفعه العمل فلا يحطه شيء ومن حطه العمل فلا يرفعه شيء : ﴿ ولكل درجاتٌ ممَّا عملوا وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ [الأنعام : ١٣٣].

الاستخلاف في الأرض

- البشر مستخلفون في الأرض .
- استخلاف البشر مقيد بقيود .
- أنواع الاستخلاف .
- سنة الله في استخلاف الحكم .
- أمثلة من المستخلفين السابقين .
- مركز المستخلفين في الأرض .
- واجبات المستخلفين في الأرض .
- جزاء تعدي حدود الاستخلاف .

البشر مستخلفون في الأرض

ولقد خلق الله البشر من الأرض واستعمرهم فيها : ﴿ هو انشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [هود : ٦١]. فلا حرج أن نقول أن مكان البشر في الأرض هو مكان المستعمر فيها ، المسلط عليها ، وأن الأرض بما فيها مسخرة لهم ، مذللة باذن ربهم ، وأن حقوقهم وواجباتهم يحددها الله الذي استعمرهم في الأرض ، ومنحهم حق التسلط عليها ، ولكننا نفضل أن نصفهم بصفة الاستخلاف التي وصفهم بها الله أكثر من مرة .

والقرآن صريح في أن الله جل شأنه خلق آدم أبا البشر ليكون خليفة في الأرض ﴿ واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة : ٣٠].

والمفسرون مختلفون في ماهية خلافة الآدميين[1] فالبعض يرى أن الآدميين خلفوا جنساً سابقاً كان يسكن الأرض فأفسد فيها وسفك الدماء ، ومن ثم فالخلافة على هذا الرأي خلافة جنس سابق . والبعض يرى أن الخلافة عن الله جل شأنه لا عن جنس آخر ، وأن الله سلط الانسان على الأرض يقيم فيها سننه ، ويظهر عجائب صنعه ، وأسرار خليقته ، وبدائع حكمه ، ومنافع أحكامه ، وسنرى فيما بعد أن هذا الاختلاف لا أهمية له في بحثنا .

استخلاف البشر مقيد بقيود

ولا جدال في أن الله أوجب على البشر حين أسكنهم الأرض أن يطيعوا أمره وأن ينتهوا بنهيه ، وأنه عهد اليهم ألا يعبدوا إلا اياه ، وألا يخشوا غيره ، وأن يتحلوا بالتقوى ، وأن يحذروا فتنة الشيطان ، وأعلمهم أن من اتبع هدى الله فقد اهتدى ، ومن كفر بآيات الله وكذب برسله فقد ضلَّ وغوى ، وأنه جعل للمهتدين الأمن ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وجعل للكافرين المكذبين النار هم فيها خالدون ، ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هُدىً فمن تبع هُداي فلا خوف عليهم ولا هم

---

(1) تفسير المنار جـ ١ ص ٢٥٧ ـ ٢٦١ .

يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [البقرة : ٣٨ ، ٣٩]. ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌ ولكم في الأرض مُستقر ومتاع إلى حين ، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بني آدم لا يفتننكم الشيطانُ كما أخرج أبويكم من الجنة ينزعُ عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما انه يراكم هو وقبيلهُ من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا واللهُ أمرنا بها ، قل انَّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجدٍ وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [الأعراف : ٢٤ - ٣٠] .

وغداً يحاسب الله البشر على زيغهم وضلالهم ، وعلى تركهم طاعة الله واتباعهم الشيطان ، ويسألهم فلا يجدوا لأنفسهم حجة ، ثم يقذف بهم أفواجاً الى النار يصلون حرها جزاء ما عصوا الله وكفروا بآياته ولم يقوموا بعهده ﴿ ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلًا كثيراً أفلم

تكونوا تعقلون ، هذه جهنم التي كنتم توعدونَ ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ [يس : ٦١ - ٦٥] .

أنواع الاستخلاف

واستخلاف البشر في الأرض نوعان : استخلاف عام ، واستخلاف خاص .

فالاستخلاف العام هو استخلاف البشر في الأرض باعتبارهم مستعمرين فيها ومسلطين عليها ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [هود : ٦٢]. وقد بدأ هذا الاستخلاف بآدم عليه السلام ومن بعده كل ذريته فهم جميعاً مُستعمرون في الأرض ، استعمرهم الله جل شأنه فيها ، وسخرها لهم وسلطهم عليها بإذنه ﴿ واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : ٣٠].

والاستخلاف الخاص هو الاستخلاف في الحكم ، وهو نوعان : استخلاف الدول واستخلاف الأفراد ، والاستخلاف في الحكم هو بنوعيه منة أخرى يمن الله بها على من يشاء من عباده أمماً وأفراداً بعد أن مَنَّ عليهم جميعاً بنعمة الاستخلاف في الأرض ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة،ونجعلهم الوارثين ﴾ [القصص : ٥] . ﴿ وجعلنا

منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ [السجدة : ٢٤] .

واستخلاف الدول معناه الأول تحرير الأمة واستقلالها بحكم نفسها وجعلها دولة لها من السلطان ما يحمي مصالح الأمة ويعلي كلمتها ، ومعناه الثاني اتساع سلطان الدولة حتى يشمل فوق أبناء الأمة أمماً وشعوباً أخرى .

واستخلاف الدول إذا كان باذن الله وبأمره منة يمن بها على الأمم ، إلا ان للاستخلاف مسبباته التي تباشرها الأمم والشعوب فتؤهلهم للاستخلاف ، وتمكن لهم في الأرض ، وتتم بذلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته تحويلاً ؛ فلا يمكن أن يجيء الاستخلاف اعتباطاً وبلا عمل ، وانما يجيء نتيجة العمل الشاق والجهد المستمر ، ولقد وعد الله جل شأنه الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالاستخلاف في الأرض ، فلم يجعل الايمان وحده هو الذي يرشح المؤمنين للاستخلاف ، وانما وعد المؤمنين بالاستخلاف اذا عملوا الصالحات ، والمقصود بالصالحات كل ما يصلح شأنهم في الدنيا من الاعداد والاستعداد والتفوق ، وما يصلح شأنهم في الآخرة من الطاعة واجتناب المعاصي . ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ [النور : ٥٥].

واستخلاف الافراد هو الاستخلاف في الرئاسة وقد يسمى المستخلف خليفة كما سمي داود عليه السلام ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ [ص : ٢٦].

وقد يسمى المستخلف إماماً كما سمي ابراهيم عليه السلام وبعض رؤساء بني اسرائيل . ﴿ واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ [البقرة : ١٢٤]. ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ [الأنبياء : ٧٣].

وقد يسمى المستخلف ملكاً ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ [المائدة : ٢٠] . ﴿ وقال لهم نبيهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ [البقرة : ٢٤٧].

سنة الله في استخلاف الحكم

وسنة الله جل شأنه في استخلاف الدول والأفراد أن يستخلف الأمة ما كانت أهلاً للاستخلاف ، وأن يستخلف

الأفراد ما كانوا أهلاً لذلك ، يبتليهم جميعاً فيما آتاهم . ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ [الانعام : ١٦٥]، فان استقام المستخلفون على أمر الله ، ودعوا اليه ، وعبدوه وحده لا شريك له ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وفعلوا الخيرات ، واجتنبوا السيئات ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ [الحج : ٤١]. ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ [السجدة : ٢٤]. ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ [الأنبياء : ٧٣]، اذا فعل المستخلفون ذلك مكن الله لهم في الأرض ، وآتاهم من كل شيء سببا ، كما مكن لذي القرنين وقومه ﴿ انا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا ﴾ [الكهف : ٨٤]، وكما مكن ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء مما لم يكن يحلم به أو يتخيله ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ [يوسف : ٥٦]، وكما مكن لبني اسرائيل في الأرض على ضعفهم وقوة أعدائهم ، بعد أن عبدهم الفراعنة واستعبدوهم ، وساموهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، فمنحهم الله جل شأنه القوة وبوأهم السلطان ، ورزقهم من الطيبات ، وجعل فيهم

النبوة والملك ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴿ ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات ﴾ [يونس : ٩٣]. ﴿ يا قوم اذكروا نعمةِ الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ [المائدة : ٢٠]، وكما مكن لقوم يونس لما آمنوا فأصلح لهم أحوالهم في الحياة الدنيا ومتعهم الى حين ، ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين ﴾ [يونس : ٩٨].

والله جل شأنه غني عن العالمين ، رحيم بهم ، فاذا أمرهم أن يأتوا أو يدعوا فانما يأمرهم بما فيه صلاحهم ، وبما يؤدي الى نفعهم ، وهو القادر على أن يذهب بالمكذبين ويستخلف أناساً غيرهم ، ولن يعجزه ذلك وقد جاءوا من ذرية غيرهم . ﴿ وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ [الأنعام : ١٣٣].

وما استقام المستخلفون في الأرض على أمر الله فهم عند وعد الله لهم في تمكين وعزة ، يأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان ، حتى إذا ما كفروا بأنعم الله وكذبوا بآياته ، وخرجوا على ما أرسل به رسله ، وظلموا وبغوا وافتتنوا بالقوة والسلطان والعلم ، أخذهم الله بغتة وهم لا يشعرون ، فسلبهم نعمتهم ، وأذهب دولتهم واستخلف غيرهم ، ولم تغن عنهم عقولهم ولا

علومهم ولا أموالهم من شيء ، لما جاء أمر ربك وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ، ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعلمون ﴾ [يونس : ١٣ ، ١٤] . ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ [الأنعام : ٦] . ﴿ ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا يستهزئون ﴾ [الأحقاف : ٢٤] .

أمثلة من المستخلفين السابقين

ولقد ضرب الله لنا من الأمثلة ما فيه مزدجر ، وبين لنا من أخبار السابقين ما فيه غناء لكل ذي لب ، فهؤلاء قوم نوح كذبوه واستضعفوه ومن معه فاستخلف الله هؤلاء الضعفاء وأهلك الأقوياء الذين غرتهم قوتهم وحملهم الغرور على تكذيب آيات الله ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ [يونس : ٧٣].

وهذا هود يدعو قومه عاداً ويذكرهم ما حدث لقوم نوح ويخوفهم منه فيقول لهم : ﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [الأعراف : ٦٣]. أي اذكروا كيف استخلفكم الله في الأرض بعد أن أهلك قوم نوح بمثل ما تفعلون ، فلما يئس من اصلاحهم قال لهم : ﴿ فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ [هود : ٥٧].

وهذا صالح يذكر قومه بما أنعم الله عليهم ، وجعلهم خلفاء من بعد عاد ، ويحذرهم عاقبة البغي والفساد في الأرض ﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ [الأعراف : ٧٤].

وموسى يشكو له قومه ما نالهم من أذى فرعون ، وما أصابهم من بغيه وبطشه ، فيبشرهم بأن سنة الله لا بد آتية ، ويظهر خشيته من أن تأتيهم نعمة الله فيكفروا بها ويفعلوا ما كان يفعله غيرهم من المعاصي ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ [الأعراف : ١١٩].

وقارون وفرعون وهامان ، تجبروا في الأرض واستكبروا

بغير الحق ، ونسوا نعمة الله عليهم ، فلم ينفعهم ما يملكون وما يعبدون من دون الله شيئاً ، وأخذهم الله بذنوبهم ، فمنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت به الأرض ، ومنهم من أغرق ﴿ وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين . فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [العنكبوت : ٣٩ ، ٤٠].

مركز المستخلفين في الأرض

علمنا أن الله جل شأنه استخلف البشر في الأرض ، وسخر لهم ما في السموات والأرض جميعاً وألزمهم أن يتبعوا هداه وأن يطيعوا أمره وينتهوا بنهيه ، ومقتضى ذلك أن الاستخلاف في الأرض رتب للبشر حقوقاً وألزمهم واجبات ، فاذا أردنا أن نحدد مركز المستخلفين في الأرض فينبغي أن نعرف معنى الاستخلاف اللغوي وأن نستخرج معناه الفقهي .

والاستخلاف لغة هو اقامة خَلَف يقوم مقام المستخلف أو مقام الغير على شيء ما ، فاذا طبقنا هذا المعنى اللغوي على استخلاف الله جل شأنه لآدم وذريته في الأرض قلنا أن البشر اما خلفاء الله أو لغيره .

وهذه النتيجة هي التي انتهى اليها المفسرون في تفسيرهم لقوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة : ٣٠]. فبعض المفسرين كما قلنا من قبل يرى أن البشر خلفوا خلقاً آخر كان يسكن الأرض فأفسد فيها وسفك الدماء والبعض يرى أن الخلافة عن الله جل شأنه لا عن خلق آخر .

ولكن الكثيرين لا يجيزون أن يقال لبشر خليفة الله ، وحجتهم انه إنما يستخلف من يغيب أو يموت ، والله لا يغيب ولا يموت ، كما يحتجون بأن أبا بكر قيل له يا خليفة الله فقال: «لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ » بينما يجيز غيرهم أن يقال لبشر خليفة الله ما دام قائماً بأمر الله في خلقه ، ولقوله جل شأنه : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ [الأنعام : ١٦٥]. ولا شك أن الرأي الأخير هو الأصح ، فما ينبغي أن يقاس بالبشر من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، واذا كان شأن البشر أن يستخلفوا في الغيبة والموت فان من شأن الله أن يستخلف وهو شاهد لا يغيب حي لا يموت ، ويكفي قوله : ﴿ اني جاعل في الأرض خليفة ﴾ وقوله ﴿ هو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ ليجوز القول بأن البشر خلفاء الله خصوصاً وأنه استخلفهم في ملكه وسخره لهم ﴿ لله

ملك السموات والأرض وما فيهن ﴾ [المائدة : ١٢٠]. ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ [الجاثية : ١٣].

واذا صح هذا فلا يهمنا أن نتحقق مما إذا كان البشر خلفوا خلقاً سابقاً عليهم أم لا ، لأن هذا الخلق السابق إنما استخلفه الله في الأرض كما استخلف البشر فاذا خلف البشر من كانوا خلفاء لله فالبشر قد صاروا بذلك خلفاء لله أيضاً ، ومن ثم ننتهي في كل الأحوال إلى أن خلافة البشر عن الله جل شأنه وليست عن غيره .

أما معنى الاستخلاف الفقهي فهو النيابة أو القوامة بحسب مدركات البشر الفقهية ذلك أن الله استخلف البشر في الأرض بقوله : ﴿ اني جاعل في الأرض خليفة ﴾ وقد حدد الله جل شأنه وظيفة البشر في هذا الاستخلاف بقوله : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [هود : ٦١]. والاستعمار معناه التمكين والتسلط وهذان المعنيان ظاهران في قوله تعالى : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون ﴾ [الأعراف : ١٠]. وقوله : ﴿ الذين ان سكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ [الحج : ٤١]. وقوله : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ [الجاثية : ١٣].

والبشر في تسلطهم على الكون وانتفاعهم بما سخر الله لهم من مخلوقات مقيدون بطاعة الله والاهتداء بهديه والابتعاد عما نهى عنه ﴿ فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هـداي فلا خـوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة : ٣٨]. ﴿ ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبـدوا الشيطان انـه لكم عدو مبين وأن اعبـدوني هذا صراط مستقيم ﴾ [يس : ٦١ ، ٦٢].

والبشـرُ بعد ذلـك ليسوا الا بعض خلق الله ﴿ الله الـذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحـييـكم ﴾ [الـروم : ٤٠]. خلقهم من تراب وجعلهم بشراً ينتشرون في الأرض ﴿ ومن آياتهِ أن خلقكم من تُراب ثمّ إذا أنتم بشرٌ تنتشرون ﴾ [الروم : ٢٠]. وما خلقهم الا ليعبدوه حق عبادته ﴿ وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦]. وسماهم عباده وعبيده ، وهو القاهر فوقهم ، يجزيهم بما قدمت أيديهم ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ﴿ وهو القاهـر فوق عبـاده وهو الحكيم الخبيـر ﴾ [الأنعام : ١٨]. ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلّام للعبيد ﴾ [فصلت : ٤٦].

فاستخلاف البشر في الأرض معناه أن الله جل شأنه أسكنهم الأرض واستعمرهم فيها ومنحهم حق التسلط على ما في الكون للانتفاع بما فيه من خيرات في حدود أمر الله ونهيه ، وإذا كان الله

قد أسكن عبيده في أرضه وسخر لهم ما في الكون منحة منه فان ما في أيدي هؤلاء العبيد من ملك الله انما هو من الناحية الفقهية عارية ينتفع بها البشر ، والقيام على العارية في فقه البشر نيابة ، وإن كانت نيابة العبد عن ربه والمملوك عن مالكه ، وإذن فكل فرد من أفراد البشر يعتبر نائباً عن ربه جل شأنه فيما سخر الله للبشر من الكون وما سلطهم عليه وهو مقيد في كل تصرفاته بحدود هذه النيابة .

وهكذا لا يكاد معنى استخلاف البشر في الأرض لغة يختلف عنه فقهاً ، ونتيجة ذلك أن مركز المستخلفين في الأرض هو مركز الخليفة أو النائب ، وأن الخلافة أو النيابة هي عن الله جل شأنه ، وهي قائمة في حدود ما سخر الله للبشر من مخلوقاته وما سلطهم عليه من ملكه ، وما خولهم في ذلك كله من الاستغلال والانتفاع .

ويجب أن لا يفوتنا أن تسخير الكون للبشر وتسليطهم على ملك الله لا يخرج هذا الذي سخر لهم وسلطوا عليه من سلطان الله ولا يحد من هذا السلطان شيئاً ، فالبشر مثلاً يحرثون الأرض ، ويلقون فيها الحب ولكنهم يرجون الانبات والاثمار من الرب ، وما يحرثون ويلقون الحب الا بما منحهم الله من حياة ، وبما ركَّب فيهم من عقول ، وبما علمهم من علم ، فهم

يستخدمون نعمة الله للانتفاع بنعمة الله ، وما لهم في ذلك من سلطان إلا سلطاناً منحهم الله اياه .

واجبات المستخلفين في الأرض

والبشر لم يستعمروا الأرض ولم يستخلفوا عليها ليفعلوا ما يشاءون دون قيد ولا شرط ، وليتركوا ما يشاءون دون حسيب ولا رقيب ، وانما استعمرهم الله في الأرض واستخلفهم عليها ليعبدوه وحده لا شريك له ، وليطيعوا أمره ، وينتهوا بنهيه ، فاذا كان استخلافهم في الأرض قد منحهم بعض الحقوق ، فانه قد حملهم كثيراً من الواجبات .

ولقد أوجب الله على البشر عامة يوم أسكنهم الأرض أن يهتدوا بهديه ، وأن يتبعوا أمره ، ﴿ فأمَّا يأتينكم مني هدي فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة : ٣٨]. وعهد اليهم ألا يعبدوا الشيطان ، وأن يعبدوا الله ﴿ ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وان اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ [يس : ٦١، ٦٢]: وكل من هذين النصين أمر عام باتباع ما أنزل الله وتحريم ما عداه .

ووعد الله جل شأنه المؤمنين به ، المهتدين بهديه ، أن يُبدل خوفهم أمناً ، وضعفهم قوة ، وأن يستخلفهم في الحكم كما استخلف الذين من قبلهم ، وأن يمكن لهم ويجعل لهم دولة

في الارض وسلطاناً على الناس والدول ، ما داموا قائمين بأمر الله ، يعبدونه لا يشركون به شيئاً ، ولا ينحرفون عن طاعته ، قليلاً ولا كثيراً ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكِّننَّ لهم دينهم الـذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعـد خوفهم أمنـاً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ [النور : ٥٥].

وبين الله لنا واجبات المستخلفين في الحكم في أخصـر عبارة وأجمعها فقال : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقامـوا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ [الحج : ٤١]. فمن واجبات المستخلفين في الحكم دولاً وأفراداً أن يقيموا الصلاة ، ولا يقيمها إلا مؤمن يعترف بأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وهذا الاعتراف يقتضي واجبات لا حصر لها .

ومن واجبـات المستخلفين في الحكم ايتاء الـزكاة ، ولا يؤتي الزكاة إلا مؤمن يسلم بما عليه من واجبات ، ويعترف بما في ذمته للغير من حقوق .

ومن واجبـات المستخلفين في الحكم الأمـر بـالمعـروف والنهي عن المنكر ، ولا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر إلا من استقام على أمر الله ، وتمسك بحبله ، وحرص على طاعته .

وقد اقتصرت الآيـة على هذه الـواجبات الثـلاث ، لأن توفرها دليل على توفر غيرها مما يوجبه الإسلام ، فإقامة الصلاة في الأمة دليل على الإيمان والطاعة ، وإيتاء الزكاة دليـل على اخذ النفس بالحق ورد الحقـوق لأربابهـا ، والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر دليل على الاستمساك بما أمر الله ودعوة الغير إليه وكفهم عن الفسوق والعصيان .

والمستخلفـون في الحكم ليسوا إلا بشـراً مستخلفين في الأرض فإذا وجب عليهم كحاكمين أن يقيمـوا الصلاة ويؤ تـوا الزكاة ويأمروا بالمعروف وينهـوا عن المنكر فـإنه يجب عليهم كبشـر مستخلفين في الأرض أن يطيعـوا الله ويهتدوا بهـديه ، وينتهوا عما نهى عنه .

ونخلص من كل ما سبق أن المستخلفين في الأرض سواء كان استخلافهم عاماً أو خاصاً عليهم واجبات عديدة تدخل كلها تحت عنوان عام هو طاعة الله ، أي الائتمار بأمره والانتهاء عما نهى عنه .

جزاء تعدي حدود الإستخلاف

رأينا فيما سبق أن الله استخلف البشر في الأرض وسخر لهم مخلوقاته وسلطهم على ملكه وخولهم استغلاله والانتفاع به ، وانه قيدهم بطاعته ، والاهتداء بهديه ، والانتهاء عما نهى عنه ،

وانتهينا إلى أن مركز المستخلفين في الأرض هو مركز الخليفة والنائب ، وأن الخلافة والنيابة هي عن الله جل شأنه .

ومنطق الفطرة يقضي بأن الخليفة او النائب إذا خرج عن حدود ما منحه من سلطان أو ما قيد به من قيود فعمله باطل بطلاناً لا شك فيه ، ولا يصح منه إلا ما يدخل في حدود الخلافة أو النيابة .

وهذا هو نفس منطق الإسلام دين الفطرة ، فنصوص القرآن قاطعة في أن الشرك بالله وكراهة ما أنزل الله وتكذيب آياته والكفر بعد الإيمان ، كل ذلك محبط للأعمال : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطنَّ عملك ولتكونَنَّ من الخاسرين ﴾ [الزمر : ٦٥]. ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ [محمد : ٩]. ﴿ والذين كذَّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ﴾ [الأعراف : ١٤٧]. ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ [البقرة : ٢١٧].

وحبوط العمل معناه ضياع العمل وبطلانه بحيث يعتبر كأن لم يكن له وجود ، وهذا ما نسميه في عرفنا القانوني بالبطلان المطلق أي البطلان الذي لا يقبل التصحيح .

وكما يترتب البطلان على الشرك بالله وكراهة ما أنزل وعلى

الإلحـاد والكفر بعـد الإيمان فـإنه يتـرتب أيضاً على عصيـان المؤمنين أمر الله ورسوله ، فكل مؤمن بالله ورسوله عصى الله ورسوله في أمر صغير أو كبير أو خرج على الطاعة في أي شيء فعمله الذي عصى به الله ورسوله او خرج به على الطاعة إنما هو عمل باطل لا يقبل التصحيح ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيهـا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبـطلوا أعـمالكم ﴾ [محمد : ٣٣]. وقول الرسول ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » أي من عمل عملاً خارجاً على ما جئنا به فعمله مردود لا أثر له .

ويستخلص من النصوص السابقة ان كل عمل خارج عن حدود الله هو عمل باطل بطلاناً مطلقـاً ولا أثر لـه من الوجهـة الشرعية ، سـواء كان العمـل حاصـلاً من مؤمن أو كافـر ومن معترف بالله او منكر له ، وليس لمسلم ان يعترف بهذا العمل او يصححه او يقوم بتنفيذه ، أياً كان نوع العمل حكماً كان او إدارة او سياسة او اقتصاداً أو تثقيفاً او غير ذلك ، وسواء كان تصرفاً شرعياً او فعلاً ماديـاً ، وسواء وقـع في دار الإسلام او في دار غيره .

ذلكم هو حكـم الإسلام الذي جعله الله للناس ديناً : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : ١٩] . واعلمهم انه لا يقبل

منهم التدين بغيره : ﴿ ومن يبتـغ غير الإسـلام ديناً فلن يقبـل منه ﴾ [آل عمران : ٨٥]. ودعاهم إلى ان يتمسكوا به ويموتـوا عليه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تمـوتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ١٠٢].

المَالُ مَالُ اللّهِ

- ماذا يملك البشر في هذا الكون .
- المال لله وللبشر حق الانتفاع .
- حدود حق البشر في الانتفاع بمال الله .
- ما يترتب على كون المال لله .
- ما يترتب على حق البشر في الانتفاع بمال الله .
- حقوق الغير في مال الله .

ماذا يملك البشر في هذا الكون

رأينا فيما سبق ان هـذا الكون خلقـه الله الذي خلق كـل شيء ، وانه سخره لمنفعة البشر ، وسلطهم عليه بما وهبهم من عقول ، وانه استخلف البشر ، واستعمرهم في الأرض ولكنـه قيدهم بطاعته والاهتداء بهديه .

ولا شك ان البشر في تسلطهم على الكون ، واستغلال ما فيه من قوى ، والانتفاع بما فيه من خيرات ، يحتاجون في حفظ حيـاتهم والاحتفاظ بقـوتهم ونشاطهم إلى طعـام ودواء ولباس وفراش ومأوى ، كما يحتاجون إلى ما يستعينون به على استغلال الكون من أدوات وآلات وحيوانات .

واستغلال الكون بعد ذلك يقتضي البشر ان يسيطروا على

بعض الأرض يستنبتـون فيهـا الـزرع او يـرعـون مـا فيهـا من حشائش ، او يستغلون ما فيها من اشجار ، او يستخرجون ما فيها من معـادن أو زيوت ، او يقيمـون عليها مسـاكنهم ومخـازنهم ومتاجرهم ومصانعهم وقراهم ومدنهم .

ثم ان عجـز البشر في طفـولتهم وشيخـوختهم ومـرضهم يدعوهم لأن يدخروا لأبنائهم ما يحييهم في طفولتهم ، وإلى ان يدخروا لأنفسهم ما يعينهم على شيخوختهم ومرضهم .

وقد تنمـو الرغبة في ادخـار القليل وتتحـول إلى رغبة في ادخار الكثير ، وهذا المدخـر يتشكل أشكـالاً مختلفة بحسب ظروف كل شخص فيكون عقاراً او منقولاً او حيوانات او معادن .

فهل يتملك البشر كل هذا الذي يحتاجونه او يجتازونه او يدخرونه ؟ وما حدود ملكيتهم ؟ وهل هي ملكيـة تامـة ام هي ملكية ناقصة ؟ وهل هي ملكية مطلقة ام هي ملكية مقيدة ؟

المال لله وللبشر حق الانتفاع

ونستطيع في سهولة ويسر إذا رجعنا إلى ما لدينا من نصوص ورتبنا معلوماتنا ترتيباً منطقياً أن نصل إلى نتيجة واحدة هي أن المال كله لله وان البشر لا يملكون منه إلا حق الانتفاع به .

فالله جل شأنه هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما

وما فيهما من شيء ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خـالق كل شيء ﴾ [الأنعام : ١٠٢] . ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ [البقرة: ٢٩]. ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ [إبراهيم : ٣٢].

ومنطقنا البشري يقتضي أن يكون خالق الشيء هو مالكه ، وبهذا المنطق نفسه جاءت نصوص القرآن ، فهي قاطعة في أن الله له ملك السموات والأرض وما بينهما : ﴿ لله مُلك السموات والأرض وما بينهما ﴾ [المائدة : ١٧]، وأنه يملك كل شيء في السموات وكل شيء في الأرض من صغير وكبير سواء كان له قيمة مالية أو لم يكن له قيمة مالية ﴿ لله مُلْكُ السمواتِ والأرض وما فيهنَّ ﴾ ، وأنه جل شأنه يملك كل هذا وحدهُ دون أن يكون له في ملكه شريك من البشر أو غير البشر ، ﴿ ولم يكن له شريكٌ في الملك ﴾ [الإسراء : ١١١].

ولكن الله جـل شأنـه استعمر البشـر في الأرض : ﴿ هـو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيهـا ﴾ [هود : ٦١]، وجعلهم خلائف فيها على ما سبق بيانه : ﴿ هو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ [فاطر : ٣٩]، وسخر لهم كل ما خلق في السموات والأرض وسلطهم عليـه بقـدر مـا يستـطيعـون من استغـلالـه واستثماره : ﴿ ألم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات وما في

الأرض وأسبغ عليكم نِعمهُ ظـاهرة وبـاطنة ﴾ [لقمـان : ٢٠].
﴿ وسخر لكم ما في السمـوات وما في الأرض جميعـاً منه ﴾
[الجاثية : ١٣] .

ولم يسخر الله ملكه لفرد دون فرد ، أو لفئة دون فئة ، وإنما سخره للبشر جميعاً وجعله مشاعاً بين عباده الذين استخلفهم في الأرض ليعيشوا فيه وينتفعوا به ، فما يعيش أحد منهم في ملكه ، وما ينتفع إلا بملك الله ، وليس أحد منهم احق بملك الله من غيره ، وقد جعل الله منفعته لكل البشر : فهم فيه سواء .

ولقد بيَّن الله لعباده الذين استخلفهم في الأرض انهم حينما يستغلون ما خلق ويستثمرونه ويحصلون على منافعه لا يأتـون بشيء من عندهم ، وإنما هو رزق من الله يسوقه إليهم ، وفضل آخـر يغمرهم بـه : ﴿ قل من يـرزقكم من السموات والأرض قـل الله ﴾ [سبأ : ٢٤]،﴿ هـل من خالق غيـر الله يرزقكم من السماء والأرض ﴾ [فاطر : ٣]. وإذا لم يكن ثمة من يرزق غير الله فعلى البشر أن يطلبوا الرزق من الله وحده ، وان يبتغوه عنده ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ [العنكبوت : ١٧] .فهو الرازق القوي على خلق الرزق وايصاله للمرزوقين ﴿ ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [الذاريات : ٢٨].

فملكُ الله مسخر لمنفعة البشر ، ولهم جميعاً ان ينتفعوا به

ويستغلوه ويستثمروه ويعملوا فيه ، والله مؤتيهم ثمرات الملك وغلته واجورهم رزقاً من عنده ، وما لرزقه من نفَاد ، وما جعل الله هذا كله إلا نعمة منه على البشر ، ما يعود عليه من نفع ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولقد علمنا فيما سبق ان ما في ايـدي البشر من ملك الله وثمراته إنما هو عارية ينتفع بها البشر ، وان القيام على العارية في فقه البشر نيابة وان كانت نيابة العبد عن ربه والمملوك عن مالكه ، كذلك علمنا ان مركز المستخلفين في الأرض هو مركز الخليفة أو النائب ، وان الخلافة او النيابة هي عن الله جل شأنه ، وهي قائمة في حدود ما سخـر الله للبشر من مخلوقـاته ، ومـا سلطهم عليه من ملكه ، وما خولهم في ذلك كله من الاستغلال والانتفاع .

وإذا كان الله جل شأنه وهو مالك كل شيء قد سخر ما يملك لينتفع به عامة البشر الذين استخلفهم في الأرض ، فإنه جل شأنه هو الذي يمنح كل فرد منهم ما في يده من هذا الملك الواسع ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ [البقرة : ٢٤٧]. سواء كان ما في يد الفرد قليلاً لا يزيد على حاجته ، او كثيراً يكفي العشـرات والمئات ﴿ ان الله يبسط الرزق لمن يشـاء ويقدر ﴾ [الـرعد : ٢٦] . وما تغير هذه المنح أياً كانت صفة الممنوحين ، فما هم إلا

بعض أفراد البشر المستخلفين في الأرض يقـومون على ملك الله ، وما هذا الملك إلا عارية في أيديهم ، وما مركزهـم من هذا الملك إلا مركز النائب او الخليفة ، وما لهم من سلطان على هذا الملك إلا ما خولهم الله من استغلاله والانتفاع به .

ولقـد فـرض الله على البشـر ان ينفقـوا من مـالـه الـذي استخلفهم فيـه وجعلهم قـوامـاً عليـه ﴿ وانفقـوا ممـا جعلكم مستخلفين فيـه ﴾ [الحـديـد : ٧]. ولـم يتـرك لهـم الخيـار في الانفاق ، وعجب ألا ينفقوا وما ينفقون إلا مما رزقهم الله وأتاهم إياه ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله ﴾ [النساء : ٣٩].

وما أمر الله البشر ان ينفقوا إلا ذكرهم انهم ينفقون من ماله الذي آتاهم ، ورزقه الذي ساقه إليهم ، والنصـوص في ذلك كثيرة منها قوله : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي أحدكم الموت ﴾ [المنافقون : ١٠]. ﴿يا أيهـا الذين آمنـوا انفقوا ممـا رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيـع فيه ولا خـلال ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. ﴿ قل لعبادي الـذين آمنوا يقيمـوا الصلاة وينفقـوا مما رزقنـاهم سراً وعـلانية ﴾ [ابـراهيم : ٣١] . ﴿ الـذين يؤمنـون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : ٣] .

وإذا كان المال مـال الله وهو عـارية في يـد البشر الـذين

استخلفهم عليه فليس للبشر ان يتأخروا عن انفاذ امر الله في هذا المال ، فإذا أمرهم ان يؤتوا فئات من الناس شيئاً من هذا المال فعليهم ان يبادروا بذلك فما يؤتونهم إلا من مال الله ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ [النور : ٣٣].

وعلى كل فرد في يده شيء من المال - وكل مال هو مال الله - ان يطيع أمر الله فيه ، سواء قلَّ ما في يده أو كثر ﴿ ومن قدر عليه رزقهُ فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ [الطلاق : ٧] .

ولا يظنن احد ان ما في يده من مال الله هو رزقٌ خصه الله به فيمنعه عن غيره ، ويبخل به على من يستحقه ، فإن الله يرزق الناس ويؤتيهم ملكه ليقوموا عليه في حدود امره ونهيه ، وإذا فضل الله بعض الناس على بعض في الرزق فلا يحسبن صاحب الرزق الكثير إذا انفق او اعطى غيره انه ينفق او يعطي من رزقه ، وليعلم انه ينفق من مال الله ، وانه لا يعطي شيئاً من عنده ، وإنما هو وسيط أعطى غيره من مال الله كما اخذ لنفسه من مال الله ﴿ والله فضَّلَ بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادِّي رزقهم على ما ملكت ايمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ﴾ [النحل : ٧١].

ولا يفوتنا ان نلاحظ ان بعض نصوص القرآن نسبت المال

لأفراد البشر من ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة : ١٨٨] .وقوله : ﴿ وآتوا اليتامى اموالهم ﴾ [النساء : ٢] . وقوله : ﴿ لتبلونّ في أموالكم وأنفسكم ﴾ [آل عمران : ١٨٦]. وقوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ [التوبة : ١٠٣]. وقوله : ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ [التوبة : ١١١]. وقوله : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ [الذاريات : ١١].

واضافة المال للبشر في هذه النصوص وغيرها لا تفيد ان البشر ملكوا المال ، وإنما تفيد انهم ملكوا حق الانتفاع به ، فالمال مال الله كما قدمنا ، وهو مالك كل شيء ، وإنما سخره للبشر لينتفعوا به ، فإذا أضيف إليهم فالإضافة لا يقصد منها إلا ملك الانتفاع . والقاعدة ان الإضافة يكفي فيها أدنى الأسباب ، ولقد أضاف القرآن مال السفهاء إلى اوليائهم ، لا لأنهم ملكوا المال ، ولكن لأنهم يملكون حق التصرف فيه بما لهم من حق الولاية ، فقال جل شأنه : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ [النساء : ٥] ، فإضافة مال الله للبشر لأن لهم حق الانتفاع به هو من نوع إضافة مال السفهاء إلى اوليائهم ، لأن لهم حق التصرف فيه .

وبعد فإن النصوص لا يصح ان تفسر على ظاهرها ما دام

هناك نصوص أخرى تناقضها . والقاعدة ان نصوص القرآن لا يترك بعضها لبعض ، وإنما تؤخذ جملة وتفسر مجتمعة ، والتفسير الصحيح الذي يرفع التناقض يقتضي اعتبار نسبة المال للبشر نسبة مجازية ، وانه نسب إليهم لوجوده في أيديهم ، ولما لهم من حق الانتفاع به في الحدود التي رسمها الله .

ونخلص من ذلك كله بأن ما في يد البشر من مال على اختلاف انواعه وأشكاله ومقاديره وما ينتجه هذا المال من أموال إنما هي جميعاً مال الله لا مال لهم وملكه لا ملكهم أقامهم عليه واستخلفهم فيه فما يملكون من هذا المال إلا حق الانتفاع به وما يستتبع حق الانتفاع بالمال من استهلاكه والتصرف فيه .

حدود حق البشر في الانتفاع بمال الله

للبشر حق الانتفاع بما في ايديهم من مال الله وهو الحق الوحيد الذي لهم على هذا المال . . والانتفاع بالمال قد يكون باستغلاله أو استثماره كما هو الحال في الأراضي الزراعية والمناجم والمحاجر ، وقد يكون باستهلاك المال كما هو الحال في الطعام والشراب والثمار ، وقد يكون بالتصرف في المال تصرفاً شرعياً كالبيع والوصية والهبة .

وللبشر أن ينتفعوا بمال الله على هذه الوجوه كلها ، ولن

يخـرجهم عن كـونهم منتفعين بـالمـال ان لهـم حق استهـلاك بعضه ، ذلك أن لهم حق الانتفاع فإذا لم يكن الانتفاع ممكناً إلا بالاستهلاك كان الاستهلاك هو عين الانتفاع ، ولقد أباح الله جل شأنه للبشر ان يستهلكوا من ماله كل ما يقتضي الانتفاع به أن يستهلك ، فأباح لهم استهلاك الطعام والشراب والثمار واللباس والأثاث ، كما أباح لهم استهلاك جميع الطيبات ، وجميع ما تقتضي ظروف حياتهم استهلاكه والنصوص في ذلك صـريحة منها قولـه جل شـأنه : ﴿ كلوا ممـا رزقكم الله حلالاً طيبـاً ﴾ [المائدة : ١٨]. ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ﴾ [البقـرة : ٦٠]. ﴿ يا أيها الـذين آمنوا كلوا من طيبـات ما رزقنـاكم ﴾ [البقرة : ١٧٢]. ﴿ كلوا من ثمره اذا أثمر ﴾ [الأنعام : ١٤١]. ﴿ والله جعل لكم من بيـوتكم سكنـاً وجعـل لكـم من جلود الأنعـام بيـــوتـاً تستخفّونها يـوم ظعنكم ويوم إقـامتكم ومن أصوافهـا وأوبارهـا وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعـل لكم سرابيـل تقيكم الحر وسـرابيـل تقيكم بـأسكم كـذلـك يتم نعمتـه عليكم لعلكم تسلمون ﴾ [النحل : ٨٠ ، ٨١]. ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ [إبـراهيم : ٤٤]. ﴿ قـل من حـرم زينـة الله التي أخـرج لعبـاده والطيبات من الرزق ﴾ [الأعراف : ٣٢].

وحقّ البشر في الانتفاع بمال الله ليس حقاً مطلقاً ، وإنما هو

حق مقيد بقيود ، فليس لهم ان ينتفعوا بهذا المال كما يشاءون ، وإنما لهم ان ينتفعوا به فقط في حدود حاجتهم لهذا المال ، وبالقدر الذي يكف عنهم الحاجة ويدفعها ، بشرط ان يكون ذلك كله في حدود الاعتدال دون سرف أو تقتير ، فليس لهم أن يسرفوا في طعامهم وشرابهم ولباسهم وأمور معيشتهم ، وما يجوز لهم أن يقتروا على أنفسهم ، وعليهم ان يتوسطوا بين الأمرين وان لا يجاوزوا حدود الاعتدال ، فقد حرم الله عليهم السرف وبسط اليد في المال كما حرم عليهم التقتير وقبض اليد عن النفس بما هي محتاجة إليه . ﴿ كلوا واشربوا ولا تُسرفوا ﴾ [الأعراف : ٣١]. ﴿ كلوا مِنْ طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه ﴾ [طه : ٨١]. ﴿ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقترُوا وكان بين ذلك قواماً ﴾ [الفرقان : ٦٧]. ﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقكَ ولا تبسطها كل البسط ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

وإذا كان للفرد أن يأخذ من مال الله ما يكفي حاجته ، فان له أيضاً أن يأخذ من هذا المال ما يكفي حاجة أهله الذين تلزمه نفقتهم كالزوجة والأولاد والأبوين ، وله أيضاً أن يأخذ بعض مال الله لينفقه في حفظ بقية المال ، وفي استغلاله وتثميره ، وله أن يفعل ذلك كله في حدود الاعتدال دون سرف أو تقتير .

ما يترتب على كون المال لله

يترتب على أن المال مال الله النتائج الآتية : ـ

١ ـ لا يجوز لأحد كائناً من كان أن يتملك المال تملكاً نهائياً ، ولا يجوز لأحد أن يكون له على المال إلا ملك المنفعة ، لأن حقوق الله ثابتة له جلّ شأنه ، وليس لأحد من البشر أن يتصرف فيها أو يتنازل عنها حاكماً كان أو محكوماً فرداً أو جماعة .

٢ ـ ان للجماعة بواسطة ممثليها من الحكام وأهل الشورى أن تنظم طريقة الانتفاع بالمال ، اذ المال وان كان لله إلا أنه جعله لمنفعة الجماعة ، والقاعدة في الإسلام أن كل ما ينسب من الحقوق لله إنما هو لمنفعة الجماعة وهي التي تشرف عليه دون الافراد .

٣ ـ ان للجماعة بواسطة ممثليها من الحكام وأهل الشورى أن ترفع يد مالك المنفعة عن المال إذا اقتضت ذلك مصلحة عامة ، بشرط أن تعوضه عن ملكية المنفعة تعويضاً مناسباً ، إذ الإسلام لا يجيز الغصب ولا يحل أخذ المال بغير طيب نفس صاحبه ، كما لا يحل أخذه بالباطل وذلك قول الله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [البقرة : ١٨٨] . وقول الرسول ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وعرضه

وماله » وقوله : « ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام » .

٤ ـ ان الإسلام وان كان يبيح حرية التملك إلى غير حد ، إلا انه يجيز للجماعة بواسطة ممثليها وباعتبارها القائمة على حقوق الله وتنظيم الانتفاع بها أن تحدد ما يملكه الشخص من مال معين إذا اقتضت ذلك مصلحة عامة كتحديد الملكية الزراعية بقدر معين أو ملكية أراضي البناء .

ما يترتب على حق البشر في الانتفاع بمال الله

ويترتب على أن للبشر الانتفاع بمال الله وتملك حق الانتفاع نتائج هي : ـ

١ ـ إذا كانت الجماعة قائمة على حق الله وهو ملكية المال ، فليس لها أن تمس ملكية الانتفاع المخصصة للأفراد إلا من وجهة تنظيم حق ملكية الانتفاع وليس لها أن تحرم ملكية الانتفاع التي جعلها الله للأفراد .

٢ ـ ان ملكية المنفعة تتصل بالعين كما تتصل بالشخص فيجوز لمالك المنفعة أن ينقلها إلى غيره بالبيع والرهن والوصية وغيرها من التصرفات الشرعية ، كما أنها تنتقل عن المالك بوفاته إلى ورثته .

٣ ـ ان ملكية المنفعة دائمة في أصلها بالنسبة للأفراد أي انها غير مقيدة بمدة معينة ، فيصح أن يظل الشيء في حيازة شخص معين ينتفع به حتى يموت ثم يتوارثه عنه أولاده وأولادهم حتى ينقرضوا كما هو الحال في الوقف .

٤ ـ ان ملكية المنفعة انما جعلت لينتفع بها الفرد بطريق مباشر ، ولتنتفع بها الجماعة من طريق غير مباشر ، فإذا عطل المنتفع المال فلم ينتفع به فقد عطل انتفاع الجماعة ، وكان للجماعة أن ترفع يده عنه بشرط أن تعوضه عنه بما يقابل قيمته .

حقوق الغير في مال الله

وإذا كان لكل فرد حق الانتفاع بما في يده من مال الله في الحدود التي بيناها ، فإن للغير حقوقاً فرضها الله في هذا المال وأوجب على من في يده المال أن يقوم بها باعتباره مستخلفاً في مال الله ، وهذه الحقوق هي :

(١) الزكاة :

وهي فريضة في مال الله ، فعلى كل فرد في يده شيء من مال الله أن يخرجها من هذا المال إذا بلغ قدراً معيناً ، ويؤديها إلى الحاكم ليردها على ذوي الحاجة طبقاً لنصوص القرآن .

والزكاة كالصلاة من مباني الإسلام ، يقول الرسول ﷺ « بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلاً » .

وأكثر النصوص تجمع بين الصلاة والزكاة ، كقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [البقرة : ٨٣]. وقوله : ﴿ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ [التوبة : ٥]، وكقول الرسول ﷺ : «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوه عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله » .

والزكاة فريضة في المال ، ولذلك تجب على الرجال والنساء والصغار والكبار ، لقوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهِّرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة : ١٠٣]. ومقدارها يختلف باختلاف المال ، فقد تصل إلى عشر المال كما في المستنبت المقتات ، وقد تصل إلى ٢,٥ بالمئة من المال كما في الحلى والنقود ، وقد تكون أقل من ذلك كما في زكاة الأنعام .

وتجب الزكاة في كل مال حال عليه الحول ، أي مضى عليه عام في يد المستخلف عليه ، لقول رسول الله ﷺ :«لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول » .

(٢) الانفاق :

وانفاق المال يعتبر في الإسلام صفة من الصفات الدالة على الإسلام وعلى الإيمان وعلى طاعة الله والقيام بأمره ، وحينما وصف الله المتقين وصفهم بأنهم : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : ٣]. فسوى جل شأنه بين الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق ، وجعلها جميعاً علامة على التقوى .

ووصف الله المؤمنين بأنهم هم الذين يخشون ربهم فإذا ذكر وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً على إيمانهم ، وأنهم يعملون ويحسنون عملهم ما استطاعوا ثم يتوكلون بعد ذلك على ربهم ، وانهم الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ، وأكد الله لنا أن هذه الأوصاف هي أوصاف المؤمن الحقيقي ، فالانفاق إذن صفة من صفات المؤمن ، وعلامة على الإيمان الحق ﴿ انما المؤمنون الذين اذا ذُكر الله وجِلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم أيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . اولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ [الأنفال : ٢ - ٤] .

بل ان الانفاق يعتبر في الإسلام أصلاً من أصول البر أي الخير ، فلا يتم الخير إلا بالإنفاق ، لقوله تعالى : ﴿ ليس البر

ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

ويلاحظ على نص الآية أولاً : انه جعل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر أصلاً من أصول البر أي الخير ، وجعل الأعمال الصالحة المترتبة على الإيمان والتي هي نتيجة له أصلاً ثانياً للبر أي الخير . فالخير هو ما يهدف إليه الإسلام ، والأصول التي يقوم عليها هي الايمان المجرد ثم اتيان ما يقتضيه الايمان من الأعمال ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ﴾ [آل عمران : ١٠٤]، فالغاية هي الدعوة إلى الخير والوسائل هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويدخل تحتهما كل ما جاء به الإسلام ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ﴾ [المائدة : ٤٨]، فغاية الأديان ليست إلا الخير ، وما تدعو الناس إلا إلى الاستباق في عمل الخير ، ووسائلها الى ذلك هي

الايمان بالله ، والعمل طبقاً لما أمر الله .

ويلاحظ على نص الآية ثانياً : أنه جعل الانفاق على رأس الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى الخير وهي غاية الاسلام وهدفه ، كذلك قدم النص الانفاق على الصلاة والزكاة ، ويكفي هذا دليلاً على مكانة الانفاق في الإسلام ، ودليلاً على أن الإسلام لا يتحقق في مسلم يمتنع عن الانفاق .

وقد بين لنا الله جل شأنه أننا لن نصل إلى ما يهدفّ إليه الإسلام وهو الخير حتى ننفق من أحب أموالنا الينا وأكرمها علينا ، فقال جل شأنه : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : ٩٢]، ومن أنفق مما يحب هان عليه ما دونه .

ويتبين مما سبق أن غاية الإسلام هي الخير ، وأن وسائله للخير هي الايمان والأعمال الصالحة ، وأن الانفاق هو أول الأعمال الصالحة ، وأن الامتناع عن الانفاق يحول دون الوصول إلى غاية الإسلام وهي الخير ، وإذا كان الانفاق وسيلة من وسائل الإسلام إلى الخير ونتيجة من نتائج الايمان بالله ، فان المسلم الذي يمتنع عن الانفاق يشهد على نفسه بأنه يعصى الله ، وأنه يعطل الإسلام ، وأنه لم يؤمن بالله حق الايمان .

أنواع الانفاق

والانفاق نوعان : انفاق الفريضة ، وانفاق التطوع ، وانفاق الفريضة نوعان : انفاق في سبيل الله ، وانفاق على ذوي الحاجة .

وانفاق الفريضة هو ما يجب انفاقه من المال ، وما للحاكم أن يأخذه ليصرفه في مصارفه ، رضي ذلك المستخلف على المال أم كرهه ، أما انفاق التطوع فهو ما ترك للمستخلف أن ينفقه هو دون أن يجبره على انفاقه أحد .

الانفاق في سبيل الله

والانفاق في سبيل الله فريضة واجبة ، ويشمل كل ما ينفق لإعلاء كلمة الإسلام ، والدفاع عنه ، ونشر الإسلام بين الناس وإقامة أحكامه ، ومن واجب كل مستخلف على مال الله أن ينفق منه في هذه السبيل ، ومن حق الحكومة الإسلامية أن تقتطع من الثروات والأموال التي في يد الأفراد ما تراه كافياً لإعلاء كلمة الله ، ويستوي أن يصرف المال في الإعداد للعدو أو دفعه أو رفع مستوى المسلمين عامة علمياً أو اجتماعياً أو رياضياً أو نشر الإسلام وإقامة أحكامه بين الناس فكل ذلك إنما هو انفاق في سبيل الله ، إذ أن سبيل الله هي طاعته في كل ما أمر به من جهاد

وحكم ومساواة وعدل وغير ذلك .

والإنفاق في سبيل الله جهاد ، اذ كما يكون الجهاد بالنفس يكون بالمال ويكون بهما معاً ، ولقد أمر الله المسلمين أن ينفروا خفافاً وثقالاً وان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيله ، فقال جل شأنه : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ﴾ [التوبة: ٤١]، وجعل الله الجهاد بالمال والنفس علامة ايمان الشخص والدليل على صدق هذا الايمان . ﴿ إنما المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون ﴾ [الحجرات : ١٥] .

ولقد اشترى الله من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ [التوبة : ١١١]. وجعل هذا البيع التجارة الرابحة المنجية ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ﴾ [الصف : ١٠ ، ١١].

واعتبر الامتناع عن الانفاق في سبيل الله القاء بالنفس في الهلكة ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ﴾ [البقرة : ١٩٥]. فإذا لم يبذل المسلمون في سبيل الله ، وتأييد

دينه ، واعلاء كلمته كل ما يستطيعون من قوة ومال فقد اهلكوا انفسهم ، ومكنوا لأعدائهم من رقابهم ، وروي عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال : ان هذه الآية نزلت فينا معشر الأنصار ، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه ، قال بعضنا لبعض سراً : ان أموالنا قد ضاعت ، ان الله قد أعز الإسلام ، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله الآية يرد علينا ما قلنا ، فالتهلكة هي الإقامة على الأموال وإصلاحها والضن بها ان تنفق في سبيل الله .

وإذا كان الله جل شأنه قد فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله على المجاهدين في سبيل الله بأموالهم فقط ، فإنه وعد كلا الفريقين الحسنى ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنون غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ﴾ [النساء : ٩٥]. فعلى كل من كان في يده شيء من مال الله ان ينفق منه في سبيله ويجاهد به لإعلاء كلمة الله وحياطة الإسلام ، ومن فاته الجهاد بنفسه فلا يفوتنه الجهاد بالمال ، فان من فاته الجهاد بالنفس والمال وهو قادر عليهما فقد فاتته رحمة الله وقدم نفسه لنار جهنم ، ولقد كره البعض في عهد رسول الله ﷺ ان يجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله فوعدهم الله نار جهنم ، ومنع

رسوله ان يصلي على من مات منهم أو يقوم على قبره ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . . . ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ [التوبة : ٨١ ، ٨٤] .

ولقد أعد الله للذين يكنزون المال ولا ينفقونه في سبيل الله عذاباً أليماً فقال جل شأنه : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وتلك هي التهلكة التي يلقي الناس بأنفسهم اليها حين يبخلون ولا ينفقون في سبيل الله .

وكل مسلم مطالب بالانفاق ما دام يجد ما ينفقه في سبيل الله ، فإذا لم يجد فما عليه من حرج ، ويكفيه النصح لله ولرسوله ولجماعة المسلمين ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا يؤاخذ الله محسناً أحسن عمله أو قوله بقدر ما يستطيع ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾ [التوبة : ٩١] .

الإنفاق على ذوي الحاجة

يدخل الإنفاق على ذوي الحاجة في الجماعة الإسلامية تحت الإنفاق في سبيل الله ، لأن سبيل الله هي طاعته ، فكل إنفاق يطاع فيه الله هو إنفاق في سبيل الله ، ولكنا افردنا للإنفاق على ذوي الحاجة مكاناً خاصاً وعنواناً مستقلاً لأن الله جل شأنه خصه بنصوص خاصة من ذلك قوله تعالى : ﴿ ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ﴾[1] [البقرة : ١٧٧]. وقوله : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾ [الإسراء : ٢٩] . وقوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ﴾ [النساء : ٣٦]. وقوله : ﴿ما سلككم في سقر .

---

(١) المساكين هم الفقراء المتعففون وقد عرّف الرسول ﷺ المسكين بقوله : « ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس » .

وابن السبيل هو المنقطع في السفر لا يتصل بأهل ولا قرابة ، والسائلون هم من تدفعهم الحاجة إلى تكفف الناس ، والسؤال محرم شرعاً إلا عند الضرورة . وفي الرقاب أي في تحريرها وعتقها كافتداء الأسرى وابتياع الرقيق وعتقه .

قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ [المدثر : ٤٤]. وقوله : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ [الإنسان : ٨] . وقوله : ﴿ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [البقرة : ٢١٥]. ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافاً ﴾ [البقرة : ٢٧٣]. وقوله : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ [الذاريات : ١١].

والإنفاق على ذوي الحاجة فريضة افترضها الله في المال فليس لمستخلف على مال الله ان يمنعها ، وللحكومات الحق في ان تأخذ من اموال الأغنياء ما يكفي حاجة الفقراء ، فإن لم تفعل فقد عصت امر الله وحرمت ذوي الحاجة حقوقهم التي فرضها لهم الله .

ولا يشترط ان يكون الفقراء وذوو الحاجة معدمين لا يملكون شيئاً اصلاً حتى يستحقوا الإنفاق عليهم ، وإنما الشرط ان لا يكون لديهم ما يكفي حاجتهم ، فكل من كان ايراده لا يكفي حاجته فهو من ذوي الحاجة وعلى الحكومة الإسلامية ان تأخذ من فضول أموال الأغنياء ما يرد حاجة ذوي الحاجة .

والإنفاق على ذوي الحاجة يعبر عنه بالصدقة كما يعبر عن

الزكاة بالصدقة ، وذوو الحاجـة الذين يجب لهم الإنفـاق هم تقـريباً الـذين فرضت لهم الـزكاة في قـولـه تعـالى : ﴿ إنمـا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضـة من الله ﴾ [البقـرة : ٦٠]. وقـد دعـا هـذا إلى اشتبـاه الأمـر على البعض ، فظن ان ليس في المال لذوي الحاجة سوى الزكاة ، وهذا خطأ لا شك فيه ، لأن الزكاة ليست هي كل ما في المال من حق ، وإنما هي الحق الأول لذوي الحاجة ، فإن كفتهم فبها ، وإلا فقد وجب الإنفاق فريضة من الله حتى تكف الحاجة عن ذوي الحاجة .

وليس أدل على صحة ما نقول من ان القرآن فرق بين الإنفاق والزكاة في نص واحد ، واعتبر كليهما من الأعمال التي يقتضيها الإيمان ويقوم من أجلها الإسلام ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، واقام الصلاة وآتى الـزكاة ﴾ [البقـرة : ١٧٧]. فجاء النص صريحاً في وجوب الإنفاق وفي وجوب الزكاة . والفصل بين الإنفاق والزكاة بالصلاة دليل على الإختـلاف بين الإنفاق والزكاة ، والنص على كل من الإنفاق والزكاة على حدة في آية

واحدة قاطع بأن كليهما يختلف عن الآخر وأنهما فريضتان مختلفتان ، ومن أدعى ان الزكاة نسخت الإنفاق كفريضة فإنه يدعي ما لا حجة له عليه ، فالزكاة فرضت في مكة والآية التي سبق ذكرها مدنية ، فكيف تنسخ الفريضة السابقة الفريضة اللاحقة ؟ بل كيف ينسخ بعض النص الواحد بعضه الآخر ؟

ولقد جاءت السنة بنفس ما جاء به القرآن من المخالفة بين الإنفاق والزكاة وجعلهما فريضتين مختلفتين ، فيروى عن أنس ابن مالك أن رجلاً من تميم أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله اني ذو مال كثير وذو أهل ومال وحاضرة فأخبرني كيف أصنع وكيف أنفق فقال رسول الله ﷺ : « تخرج الزكاة فإنها طهرة تطهرك ، وتصل اقرباءك وتعرف حق المسكين والجار والسائل » ففرق الرسول بين الزكاة وبين صلة الأقارب وإعطاء المساكين والجيران والسائلين حقوقهم التي أوجبها الله لهم بعد الزكاة . وروت فاطمة بنت قيس ان رسول الله ﷺ قال : « إن في المال لحقاً سوى الزكاة» ثم تلا قوله تعالى : ﴿ ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ الخ الآية .

فالإنفاق إذن فريضة غير فريضة الزكاة ، وقد افترضه الله لسد ما لم تسده الزكاة من حاجات ، ومن الممكن ان تسد فريضة الزكاة حاجة ذوي الحاجة كما حدث في عهود الإسلام

الأولى ، وقد تزيد عن حاجتهم كما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز فقد كانت الدولة لا تجد من المحتاجين من تنفق عليهم بعض حصيلة الزكاة . فإذا لم تقم فريضة الزكاة بسد حاجة ذوي الحاجة ففريضة الإنفاق تقوم بما لم تتسع له فريضة الزكاة .

إنفاق التطوع

هذا النوع من الإنفاق يأتي بعد أداء إنفاق الفريضة بنوعيه ، وهو متروك لاختيار المنفق إن شاء أنفق وإن شاء امتنع ، ولذلك سميناه إنفاق التطوع ويسمى صدقة التطوع فإن أنفق فله أجر الإنفاق وأن لم ينفق لم يأثم .

ولقد حض الإسلام على الإنفاق وحببه إلى الناس وأعدَّ لهم عليه أفضل الجزاء ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [البقرة : ٢٦١]. وأعلمهم أن ما ينفقون من خير فإنما يعود عليهم ﴿ وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ﴾ [البقرة : ٢٧٢]. ودعاهم إلى أن ينفقوا من أموالهم في كل وقت من أوقات الليل والنهار وفي السر والعلانية ، وضمن لهم الأجر الجزيل والجزاء الأوفى ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة : ٢٧٤] .

وسنة الرسول ﷺ تنهج نهج القرآن في الحض على الإنفاق فما روي عنه قوله : « تصدقوا ولو بتمرة فإنها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » وقوله: « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » وقوله : « ما من عبد يتصدق بصدقة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا طيباً ـ إلا كان الله آخذها بيمينه فيربيها كما يربي أحدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد » وقوله : « كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضي بين الناس » .

حد الإنفاق

جعل الإسلام للإنفاق حدين : الحد العادي ، وحد الضرورة سواء كان الإنفاق فريضة أو تطوعاً .

فأما الحد العادي للإنفاق فيمتد إلى كل ما يزيد عن حاجة المستخلف على المال فما زاد على حاجته فهو محل للإنفاق أياً كان مقداره ، والأصل في ذلك قول الله جل شأنه : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ [البقرة : ٢١٩]. وقوله: ﴿ خذ العفو وأْمُرْ بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩]. والعفو هو الفضل أي ما عفت عنه الحاجة وما فضل بعد سدها .

وروي في أسباب نزول الآية الأولى أن نفراً من الصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن حد الإنفاق فأجيبوا على لسان الوحي أن

ينفقوا العفو أي ما زاد عن حاجتهم .

ولقد حاول بعض المفسرين أن يفسر العفو بمعنى آخر ، فقال ان العفو نقيض الجهد فيكون معنى الآية أنهم ينفقون ما سهل عليهم وتيسر لهم مما يكون فاضلاً عن حاجتهم وهو تفسير تكلف يخالف ظاهر النص ويخالف ما روي عن الرسول ﷺ من قوله : « يابن آدم انك ان تبذل الفضل خير لك وان تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف » والفضل ما زاد عن الحاجة ، والكفاف ما كف عن الحاجة ولا يزيد عن قدرها . وقول الرسول : « طوبى لمن عمل بعلمه ، وانفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله » وقوله : « الأيدي الثلاثة ، فيد الله العليا ويد المعطي التي تليها ، ويد السائل السفلى ، فاعط الفضل ولا تعجز عن نفسك » فهذا رسول الله ﷺ يفسر العفو بأنه الفضل وما زاد عن الحاجة ، ويدعو إلى إنفاقه جميعاً ويحذر من إمساكه ، ويقول في صراحة : انه لا ملام على الإحتفاظ بما يكفي الحاجة ، وإنما الملام على ما زاد عن ذلك .

ولقد حدد بعضهم حاجة المستخلف على المال بالحاجة اليومية ، ووجدها البعض بالحاجة الشهرية وحددها آخرون بحاجة السنة ، وحجتهم أن النبي ﷺ ادخر لأهله قوت سنة .

وإذا كان كل ما زاد عن حاجة المستخلف على المال محلاً

للإنفاق فينبغي أن نعلم ان إنفـاق هذا الـزائد لا يجب إلا إذا استوجب الإنفاق حاجة الغير إليه ، فإذا لم يكن بالغير حاجة إلى الفضل كان لمن في يده المال أن ينفق منه تطوعاً ما شاء ولو أتى على كل الفضل ، أما إذا كان بالغير حاجة إلى الفضل فليس لمن في يده المال أن يأخذ من الفضل شيئاً وإلا كان آخذاً غير حقه ، وهذا ما فهمه أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله حين سمعه يقول : «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعمد به على من لا زاد له » قال أبو سعيد فذكر ـ أي الرسول ـ من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل .

وللحكومة الإسلامية بعد ذلك أن تأخذ من فضـول أموال الأغنياء فتردها على الفقراء ولو لم يكونوا بحاجة إليها إذا اقتضت ذلك مصلحة عامة تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البـر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [المائدة : ٣]. وهذا هو ما رآه عمر رضي الله عنه قبيل وفاته ، فقد أثر عنه أنه قال : ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء ، وكان عمر يرى هذا بالرغم من أنه فرض لكل شخص في بيت المال حتى الأطفال ، فلم تكن حاجة الغير إلى فضول أموال الأغنياء هي التي تدعو عمر إلى القول برد هذه الفضول للفقراء ، وإنما رأى عمر أن ثروات الأغنياء تضخمت

وخشي عليهم الترف والبطر ، وخشي على الفقراء الحسد والفتنة ، فودَّ لو حسم الأمر كله برد فضول أموال الأغنياء على الفقراء ، ولو طال عمره وفعل هذا لتغير تاريخ الإسلام .

وحاجة الغير لفضول الأموال لا تتحدد فقط بما يكفي حاجة الأفراد متفرقين ، وإنما تتحد أيضاً بما يكف حاجتهم مجتمعين ، أو بتعبير آخر تتحدد الحاجة إلى فضول الأموال بما يسد حاجة الجماعة بعَد حاجة الأفراد ، وحاجات الجماعة لا تنتهي ولا حد لإشباعها ، فكلما تقدمت الجماعة وقويت زادت حاجتها إلى التقدم والقوة لتحتفظ بمكانتها بين الجماعات ، وكلما أقامت الجماعة أمر الله تجددت حاجتها إلى إقامة أمر الله لمواجهة المستحدث من الفساد والعصيان .

وإذن ففضول الأموال رهن بما يسد حاجة الأفراد وحاجة الجماعة ، فليس لمن في يدهم هذه الفضول أن ينفقوا منها شيئاً على أنفسهم وإلا كانوا آخذين غير حقهم وليس لهم أن ينفقوا منها تطوعاً إلا بعد أن يأخذ الأفراد والجماعة ما يجب لهم فيها ، ولو أن إنفاق التطوع يعود على الغير بالنفع ، ذلك أن صدقة التطوع تترك لمشيئة المتطوع ، يوزعها كيف يشاء ، أما إنفاق الفريضة فيجب أن يصيب من لهم الحق في المال دون غيرهم .

أما حد الضرورة في الإنفاق فإنه يمتد من الفضول إلى نفس

الجزء المخصص لسد حاجة المستخلف على المال ، فيصبح للغير من الأفراد وللجماعة الحق في أخذ ما تدعو الضرورة لأخذه من هذا الجزء قل المأخوذ أو كثر لسد حاجة الآخرين ولتوفير المال الضروري لصيانة أمن الدولة الخارجي والداخلي .

ولا ينتقل حد الإنفاق إلى الجزء المخصص لسد حاجة المستخلف على المال إلا لضرورات تقتضي هذا الإنتقال . ونستطيع أن نضرب على هذه الضرورات أمثلة حدثت في مطلع العهد الإسلامي .

وأول هذه الأمثلة كان في عهد الرسول ﷺ فقد أمر المسلمين بالهجرة من مكة إلى المدينة فهجروا مكة متسللين تاركين أموالهم لمشركي قريش ودخلوا المدينة وأكثرهم لا يملك قوت يومه ، وما ترك المهاجرون كل أموالهم إلا استجابة لأمر الله ، وجهاداً بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون ﴾ [الحشر : ٨]. فلما وصل الرسول ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار وأنزل المهاجرين على الأنصار يشاركونهم في كل ما يملكون ، ويقاسمونهم القليل والكثير ، ولم تكن أموال الأنصار بالتي تتسع لهم وللمهاجرين ولكنهم رحبوا بالمهاجرين وآثروهم على أنفسهم وهم في أشد الحاجة إلى ما

يؤثرون به غيرهم ، وما فعلوا ذلك إلا استجابة لله وجهاداً في سبيله فاستحقوا بذلك قول الله فيهم : ﴿ والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر : ٥].

هذا هو المثل الأول يبين لنا ان مصلحة الإسلام اقتضت ان يضحي المهاجرون بكل أموالهم فضحوا بها طيبة نفوسهم ، وان المصلحة اقتضت ان يضحي الأنصار بالكثير مما هم في اشد الحاجة اليه فنزلوا على أمر الله وآثروا المهاجرين على أنفسهم .

أما المثل الثاني فكان في عهد عمر رضي الله عنه حين حدثت المجاعة في سنة ثماني عشرة من الهجرة ، واشتد الجوع حتى جعلت الوحش تأوي إلى الأنس وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها ، فآلى عمر على نفسه ان لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحي الناس ، وكان يقول : « لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا ان أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم انصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحياة فعلت، فإنهم لن يهلكوا على إنصاف بطونهم » وما قال ذلك إلا بعد ان كتب إلى أمراء الأمصار يستمدهم ، فكان اول من قدم اليه ابو عبيدة ابن الجراح في أربعة آلاف راحلة من طعام، وبعث عمرو بن

العاص الطعام في السفن وعلى الإبل ، فبعث عشرين سفينة والف بعير محملة بالدقيق ، كما بعث خمسة آلاف كساء ، وبعث معاوية ثلاثة آلاف بعير محملة كما بعث ثلاثة آلاف عباءة ، وبعث سعد ابن ابي وقاص الف بعير محملة بالدقيق ، وكل ذلك وزع على المحتاجين والفقراء ولكنه لم يكد يسد حاجتهم فرأى عمر ان يدخل على أهل كل بيت عدتهم من المحتاجين ليقاسموهم طعامهم ويعيش الجميع على انصاف بطونهم .

وقد استلهم عمر في هذا الاتجاه روح الإسلام وتأسى بما فعله رسول الله ﷺ من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وانزال المهاجرين على الأنصار حتى يسر الله للمهاجرين وأذهب عنهم الفاقة .

أما المثل الثالث فبطله أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه كان وثلثمائة من صحابة الرسول في سفر ففنيت أزواد بعضهم فأمرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم في مزودين وجعل يقوتهم اياها على السواء .

وهكذا يحمل الإسلام الناس في الأزمات والمجاعات وعند الضرورات أن يسع بعضهم بعضاً فيما هم في حاجة إليه وفيما يقيم أودهم ويحفظ حياتهم ، وفي هذا روي عن الرسول ﷺ

قوله : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب (إلى الطعام) بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » .

والأصل في ذلك كله أن المال مال الله ، وأن الإسلام فرض على المسلمين أن يتعاونوا على البرّ والتقوى : ﴿ وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [المائدة : ٣] ، كما أن الإسلام يقيم المجتمع الإسلامي على أساس التضامن الإجتماعي ، فيجعل في أموال الأغنياء حقاً للفقراء : ﴿ وفي أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم ﴾ [الذاريات : ١٩]، ﴿ وآتِ ذا القُرْبى حقهُ والمسكين وابن السبيل ﴾ حتى ليبرأ الله من كل جماعة أصبح فيهم فرد جائعاً ، وذلك قول رسول الله : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله » . ويجعل الإسلام المسلمين بمثابة البنيان يشد بعضه بعضاً ، ويقيم بعضه البعض الآخر ، بل يجعل المسلمين جميعاً جسداً واحداً إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « المؤمن للمؤمنِ كالبنيان يشدُ بعضهُ بعضا » ويقول : « مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منهُ عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ويوجب الإسلام على كل مسلم أن يرحم أخاه المسلم ،

وان لا يظلمه ولا يسلمه ، وذلك قول الرسول ﷺ : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » وقوله : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » فمن كان له فضل مال ورأى أخاه جائعاً فلم يغثه فما رحمه بلا شك ، ومن تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه لا جدال في ذلك .

بحث محدود

هذه هي خلاصة نظرية الإسلام في ملكية المال ، وتلك هي الأصول التي تقوم عليها ، وما نريد أن نتعرض لما لا محل له في هذا الكتاب ، وما تعرضنا لنظرية المال إلا بقدر ما نستبين حق الحكومات على ما في يد الأفراد من مال وحق الأفراد في هذا المال ، ونرجو أن يوفقنا الله لوضع كتاب خاص نبسط فيه النظرية وتطبيقاتها وما يتصل بها من نظريات اقتصادية إسلامية ، وما يمكن أن يترتب على هذه النظريات في المجتمع الإسلامي .

لِلَّهِ الحُكْمُ والأمْرُ

- لمن الحكم .
- الحكم من طبيعة الاسلام .
- الاسلام عقيدة ونظام .
- الاسلام دين ودولة .

لمن الحكم ؟

هذا سؤال لا تصعب الاجابة عليه بعد أن علمنا أن الله هو خالق الكون ومالكه ، وأنه استعمر البشر واستخلفهم في الأرض ، وأمرهم أن يتبعوا هداه ، وأن لا يستجيبوا لغيره ، فكل ذي منطق سليم لا يستطيع أن يقول بعد أن علم هذا إلا أن الحكم لله ، وأنه جلّ شأنه هو الحاكم في هذا الكون ما دام هو خالقه ومالكه ، وأن على البشر أن يتحاكموا الى ما أنزل ويحكموا به ، لأنهم من وجه قد استخلفوا في الأرض استخلافاً مقيداً باتباع هدى الله ، ولأنهم من وجه آخر خلفاء الله في الأرض ، وليس للخليفة أن يخرج على أمر من استخلفه .

وقد جاءت نصوص القرآن مؤيدة لهذا المنطق البشري السليم ، فهي تلزم البشر باتباع ما جاء من عند الله ، وتحرم

عليهم تحريماً قاطعاً اتباع ما يخالفه : ﴿ اتَّبع ما أوحِيَ اليك من ربك لا الهَ الا هو وأعرض عن المشـركين ﴾ [الأنعام : ١٠٦]. ﴿ اتبعوا ما أُنزل اليكم من ربكـم ولا تتبعوا من دونِـه أولياء ﴾ [الأعراف : ٣].

وقد علمنا الله أن الحق شيء واحد لا يتعدد ، وأنه ليس في الدنيا الا حق أو باطل ، وليس بعد الحق إلا الضلال ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ [يونس : ٣٢]. كما علمنا أنه أرسل رسوله محمداً ﷺ بـالحق ﴿ إنّا أرسلنـاك بالحق بشيـراً ونـذيراً ﴾ [البقـرة : ١١٩]. وأن الكتاب الـذي أنزل عليـه جاء بالحق : ﴿ نزّلَ عليك الكتاب بالحق ﴾ [آل عمران : ٣]. ﴿ إنّا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ﴾ [النساء : ١٠٥].

وإذا كان الله قد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ [التـوبة : ٣٣]. فـان الـذين يستجيبون للرسـول ولما جـاء به انمـا يستجيبون للحق ويتبعون الهدى .

أما الذين لا يستجيبون للرسول ولما جاء به من الحق فقد علمنا الله أنهم يستجيبون للضلال ويتبعون أهواءهم ، وأن أعظم الناس ضلالاً هو من اتبع هواه بهدى الله : ﴿ فان لـم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواهُ بغير

هدىً من الله ﴾ [القصص : ٥٠].

وقد جعل الله ما أنزله على رسوله شريعة لنا ، وأوجب علينا أن نتبعها ونلتزم حدودها ، ونهانا عن اتباع تشريعات الناس وقوانينهم ، فما هي إلا اهواؤهم وضلالاتهم يصوغونها تشريعات وقوانين يضلون بها البشر ويصرفونهم عن شريعة الله ، وهم مهما تعلموا وعلموا لا يعلمون شيئاً في جنب علم الله الذي أحاط بكل شيء علماً ، والذي يعلم ما فيه هداية البشر وخيرهم : ﴿ ثم جعلناك على شريعةٍ من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ [الجاثية : ١٨].

والشريعة التي أنزلها الله على رسوله وألزمنا اتباعها والعمل بها ليست إلا كتاب الله الذي يقرأه المسلمون ويستمعون اليه في كل صباح ومساء ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ [الانعام : ١٥٥]، وهذا الكتاب هو القرآن الكريم : ﴿ كتابٌ فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ [فصلت : ٣].

ولقد كان في النصوص السابقة ما يكفي للقطع بأن الحكم في البلاد الاسلامية يجب أن يكون طبقاً للشريعة الاسلامية ، لأن اتباع ما أنزل الله يقتضي أن يكون الحكم بما أنزل الله ، وأن يكون الحكام قائمين على أمر الله ، ذلك أنه إذا استطاع البعض أن يتبعوا أمر الله فيما يتصل بذواتهم وفيما هو في أيديهم فما

يستطيعون أن يتبعوا أمر الله فيما يتصل بغيرهم وفيما هو في أيدي الغير ، وإذا استطاعوا أن يتبعوا أمر الله عند الاتفاق فما يستطيعون أن يتبعوه عند الاختلاف ، وإذا استطاعوا أن يتبعوا أمر الله فيما هو للأفراد فكيف يستطيعون أن يتبعوه فيما هو للحكام اذا لم يكن الحكام مقيدين باتباع ما أنزل الله ؟

وكان يكفي أن نعلم أن الله أوجب علينا عند التنازع والاختلاف أن نتحاكم الى ما أنزل الله ونحكم في المتنازع عليه والمختلف فيه بحكم الله ﴿ فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ﴾[النساء : ٥٩]. ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾[الشورى : ١٠]. كان يكفي أن نعلم هذا لنقطع بأن الحكم لله ، وأن الحكام والمحكومين في كل بلد اسلامي يجب أن يتقيدوا في كل تصرفاتهم واتجاهاتهم باتباع ما أنزل الله ، وأن يجعلوا دستورهم الأعلى كتاب الله .

ولكن الله جلّ شأنه ، وهو أعلم بالإنسان ، وبأنه أكثر شيء جدلاً جاءنا بنصوص لا سبيل فيها الى جدال أو استنتاج ، تقضي أن الحكم لله في الدنيا وفي الآخرة ﴿ هو الله لا اله الا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ﴾ [القصص : ٧٠]. وتبين لنا أن الله لم يرسل الرسل الا مبشرين ومنذرين ، ولم ينزل الكتب الا ليتخذها الناس دستوراً في

حياتهم الدنيا ، يحكِّمونها ويحكمون بمقتضاها في كل شؤونهم ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [البقرة : ٢١٣].

ومن هذه النصوص القاطعة نعرف أن الله أنزل القرآن على نبيه محمد ﷺ ليكون دستور البشرية وقانونها الأعلى ، وليقضي الرسول بين الناس على مقتضى أحكامه كما علمه الله ﴿ إنّا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ [النساء : ١٠٥].

ونعرف أن الله جل شأنه نفى الايمان عن العباد وأقسم بنفسه على ذلك حتى يحكموا الرسول فيما يشجر بينهم ليحكم فيه بحكم الله ، ولم يكتف الله تعالى في اثبات الايمان لهم بهذا التحكيم المجرد بل اشترط لاعتبارهم مؤمنين أن ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق من قضاء الرسول وحكمه ، وأن يسلموا تسليماً وينقادوا انقياداً لما حكم به ، ولن يحكم إلا بما أنزل الله وبما أراه اياه ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء : ٦٥].

ومن هذه النصوص القاطعة نعرف أن الله أمر أن يتحاكم

الناس الى ما أنزله على رسوله ويحكموا به ، وأنه تعالى حذر من اتباع الأهواء والحكم بها ، وأمر أن يكون الحكم كله مطابقاً لما أوحى به ، كما حذر الحاكم من أن يترك بعض ما أنزل الله أو أن يفتن عنه ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عمَّا جاءك من الحق ﴾ [المائدة : ٤٨]. ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ﴾ [المائدة : ٤٩]. ﴿ وكذلك انزلناه حُكماً عربياً ولَئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق ﴾ [الرعد : ٣٧].

ومن هذه النصوص نعرف أن الله جعل الحكم بما أنزله أحسن حكم وأفضله ، وأنه نسب الحكم بما أنزل الى نفسه فجعله حكم الله وأنه جعل الحكم بما عداه حكماً جاهلياً يقوم على الباطل ، وأنه وصف من يبتغي غير حكم الله بأنه يبغي حكم الجاهلية القائم على الأهواء والضلال ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ [المائدة : ٥٠].

ومن هذه النصوص القاطعة نعرف أن الله حرم الحكم بغير ما أنزل ، كما حرم عليهم الكفر والظلم والفسوق والعصيان ، وجعل من لم يحكم بما أنزل الله كافراً وظالماً وفاسقاً ، فقال جل شأنه : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الظالمون﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [المائدة: ٤٧].

ولقد عبر القرآن عن الكفر بلفظ الظلم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : ١٣]. وقوله : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ [البقرة : ٢٥٤]. وقوله : ﴿ وما يجحد بآياتنا الا الظالمون ﴾ [العنكبوت : ٤٩]. كذلك عبر القرآن عن الكفر والظلم بالفسق من ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ [البقرة : ٩٩]. وقوله : ﴿ انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ [التوبة : ٨٤]. وقوله : ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ [النور : ٥٥]. وقوله : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ [البقرة ٥٩]. وقوله : ﴿ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ [الأعراف : ١٩٥].

واذا كان الظلم والفسق بمعنى الكفر فيكون فسق من لم يحكم بما أنزل الله وظلمه هو الكفر ، ويكون من لم يحكم بما أنزل الله كافراً في كل الأحوال بنص القرآن .

ولكن بعض المفسرين يفسرون الظلم بالانحراف عن الحق ، ويفسرون الفسق بالعصيان ، ويجمعون بين الآيات

الثـلاث في التفسير ، فيـرون أن من يستحدث من المسلمين احكاماً غير ما أنزل الله ويترك بالحكم بها كل أو بعض ما أنزل الله من غير تأويل يعتقد صحته ، فإنه يصدق عليه ما قاله الله ، كل بحسب حاله ، فمن أعرض عما أنزل الله لأنه يفضل عليه غيره من أوضاع البشر فهو كافر قطعاً ، ومن لم يحكم به لعلة أخرى غير الجحود والنكران فهو ظالم إن كان في حكمه مضيعاً لحق أو تاركاً لعدل أو مساواة ، وإلا فهو فاسق .

الحكم من طبيعة الاسلام

هذه بعض نصوص القرآن التي تعرضت للحكم ، وليس بعد ما ذكرنا حجة لمحتج ولا سبيلٌ لجدال ، فليعرف المسلمون أحكام دينهم ونصوص شريعتهم ، ثم ليأخذوا عن بينة وليدعوا عن بينـة ، أمـا أن ينـطلقـوا وراء تـلاميـذ المبشـرين واذنـاب المستعمرين ويدعون مثلهم أن الاسلام لا علاقة له بالحكم ، ولم ترد فيه نصوص عن الحكم فذلك هو الجهل المطبق والجدل المنكر ، وأي جهل أشد من جهل رجل يدعي لنفسـه صفة لا يعـرف ماهيتهـا ، فيدعي لنفسـه الاسلام وهـو يجهـل حقيقـة الاسلام ، وأي جدل أنكر من جدال جاهل يحتج على الناس بجهله ، ويريد منهم أن ينكروا ما علموه لأنه يجهله أو لا يريد أن يتعلمه !

إن الإسلام يلزم الناس باتباع ما أنزل الله ويوجب عليهم أن يتحاكموا الى ما جاء من عند الله ويحكموا به وحده دون غيره ، وليس لـذلـك معنى إلا أن الحكم هـو الأصـل الجـامـع في الاسلام ، والدعامة الأولى التي يقوم عليها الاسلام .

إن كل من له المام بالاسلام يعلم حق العلم أن الحكم في الاسلام تقضي به طبيعة الاسلام أكثـر مما تقضي بـه نصوص القرآن ، ففي طبيعة الاسلام أن يسيطر على الأفراد والجماعات ويوجههم ويحكم تصرفاتهم ، وفي طبيعة الاسلام أن يعلو ولا يعلى عليه ، وأن يفرض حكمه على الدول ، وأن يبسط سلطانه على العالم كله .

إن الإسلام ليس عقيدة فقط ولكنه عقيدة ونظام ، وليس ديناً فحسب ولكنـه دين ودولة ، ومن المؤلم حقـاً أن يجهل أكثـر المسلمين ذلك لأنهم يجهلون كل شيء عن حقيقة الاسلام ، ولا يعلمـون عنه إلا أنـه عبادات يتلقـونها عن طـريق التقليـد والمحاكاة .

الاسلام عقيدة ونظام

والاسلام عقيدة ومبدأ ما في ذلك شك ولكنه ما كان عقيدة تعتقد ومبدأ يعتنق الا بعد أن استوى نظاماً دقيقاً شاملاً ينظم كل شأن من شؤون النفس البشرية ، وينظم كل ما تحيط به النفوس

من المعاني وما تدركه من المحسوسات ، سواء اتصلت بالأفراد أو الجماعات ، وسواء اتصلت بدنيانا التي نعيش فيها أو بالحياة الأخرى التي نرجوها حياة طيبة .

والإسلام كعقيدة هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولكنه كنظام يسيطر على الإنسان سيطرة تامة ويرسم له منهاجه في الحياة وهدفه منها ، كما يرسم له طرائق العمل التي تؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

الإسلام كنظام يسيطر على المسلم في كل حركاته وسكناته ، يسيطر عليه في تفكيره ونيته ، وفي قوله وعمله ، يسيطر عليه في سره وجهره وفي خلوته وجلوته ، يسيطر عليه في قيامه وقعوده وفي نومه ويقظته ، يسيطر عليه في طعامه وشرابه وفي ملبسه وحليته ، يسيطر عليه في بيعه وشرائه وفي تصرفاته ومعاملاته ، يسيطر عليه في جده ولهوه وفي فرحه وحزنه وفي رضاه وغضبه ، يسيطر عليه في بأسائه ونعمته وفي مرضه وصحته وفي ضعفه وقوته ، يسيطر عليه غنياً وفقيراً صغيراً وكبيراً عظيماً وحقيراً ، يسيطر عليه في بنيه وأهله وفي صداقته وعداوته وفي سلمه وحربه ، يسيطر عليه فرداً وفي جماعة وحاكماً ومحكوماً ومالكاً وصعلوكاً ، وليس ثمة تصرف يتصوره العقل أو حال يكون عليها الانسان الا سيطر فيها الاسلام على المسلم ووجهه الوجهة التي رسمها .

والذين يظنون ان الإسلام عقيدة وليس نظاماً إنما هم جهال لا يعلمون من الإسلام شيئاً ، أو هم اغبياء لا يستطيعون أن يفقهوا حقيقة الإسلام ، فالإسلام في حقيقته صبغة يصبغ الله بها عباده المؤمنين ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ [البقرة : ١٣٨]. ولا يكون المسلم مسلماً إلا إذا اصطبغ بصبغة الإسلام ، ولون نفسه وأهله وتصرفاته وما يحيط به باللون الإسلامي الخالص .

وأجهل من هؤلاء وأشد غباءً من يظنون ان مصلحة المسلمين في أن يحافظوا على الإسلام عقيدة وينبذوه نظاماً ، ذلك ان العقائد والمبادىء الإسلامية لا يمكن ان تعيش وتنتشر إلا في ظل النظام الإسلامي الذي تكفل بوضعه الخلاق العليم .

ولست ادري كيف يؤمن هؤلاء بالإسلام عقيدة ولا يؤمنون به نظاماً ، أتراه عقيدة من عند الله ، ونظاماً من عند غير الله ؟ ﴿قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ [النساء : ٧٨].

ان الله الذي جعل الإسلام ديناً هو الذي جعله عقيدة ونظاماً ، وان الله ليأبى على الناس ان يبتغوا لأنفسهم ديناً غير هذا الدين ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

ولقد أكمل الله الدين الإسلامي واتم بـاكمالـه نعمته على الخلق ورضيه ديناً للناس فما يجوز لهم ان يزيدوا فيه او ينقصوا منه ، وما يجوز لهم ان يرضوا لأنفسهم غير مـا رضيه الله لهم ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : ٣] .

وإذا كان الله جل شأنه قد اختار الإسلام ديناً ورضيه للناس عقيدة ونظاماً ، فكيف يكون لمؤمن ان يختار وقد حرم الله عليه الاختيار ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

أفـلا يعلم هؤلاء ان احكـام الإسـلام لا تتجـزأ ولا تقبـل الانفصال ، وأن نصوصه تمنع من العمل ببعضها وإهمال البعض الآخر ، كما تمنع من الايمان ببعضها والكفر ببعض ، وان الله جل شأنه توعد من يفعل ذلك بالخزي في الحياة الدنياوبالعذاب الشديد في الآخرة ﴿ افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ﴾ [البقرة : ٨٥] .

ولقد تمنى قوم في عهد الرسول ﷺ ان يترك الرسول بعض ما أنزل الله ليحكم بما يتفق مع اهوائهم ، فنزل الوحي يأمر الرسول بـأن يتمسك بمـا انزل الله ، ويحـذره من اتبـاع اهـواء هؤلاء

الفساق ، ويعلمه ان تحكيم الاهواء هو حكم الجاهلية ، وان أفضل حكم وأحسنه هو ما اختاره الله لعباده ﴿ وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم ، واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم إنَّما يـريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وأن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ [المائدة : ٤٩ - ٥٠] .

إن الذين يريدون ان يفصلوا بين العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامي إنما هم أعداء الإسلام عن عمد أو جهل ، فالنظام الإسلامي أشبه ما يكون بالآلة التي تنتج الكهرباء والعقيدة الإسلامية هي النور الذي تعمل الآلة لانتاجه ، فإذا عطلت الآلة انقطع النور وانتهى الإسلام .

إن الدين الإسلامي يمتاز بأنه استطاع أن يُوحِّدَ بين الأجناس والألوان والأمم ، وأن يوجههم جميعاً وجهة واحدة ، وأن يحملهم على نهج واحد وغاية واحدة ، وما استطاع الدين الإسلامي أن يصل لهذا إلا لأنه عقيدة ونظام .

ولقد جاءنا الإسلام بعقائد معينة ولكنه لم يأتنا بها مجردة ، وإنما أتى معها بالنظام الذي تقوم عليه وتحيا به ، وألزمنا اتباعه والتزامه ، وهو نظام دقيق من التربية والتوجيه ، يشمل كل شيء

كما قدمنا ، ويتدخل في كل حالة من حالات الإنسان ، وينتقل بالفرد من مرحلة إلى مرحلة حتى ينتهي به إلى مرحلة التخلي عن أنانيته وأهوائه ، ويصل به إلى مرحلة التجرد لخدمة المبادىء القرآنية والفناء فيها .

وهكذا يربي الإسلام المسلمين تربية واحدة ، ويوجههم توجيهاً موحداً ، ويجردهم لخدمة أهداف واحدة ، فما يطلبه احدهم هو ما يطلبه الآخر ، وما تعمل له مجموعة منهم هو نفسه ما تعمل له كل مجموعة اخرى ، وما يأمله صغيرهم هو ما يأمله كبيرهم ، وما يضر أحدهم يضر مجموعهم ، فهم على تعدد أشخاصهم وتباعد بلادهم نفس واحدة ، وقلب واحد ، ورجل واحد ، وعلى هذا الأساس شبه الرسول ﷺ المسلمين بالجسد الواحد إذا شكا منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وإذا كان الإسلام في حقيقته عقيدة ونظاماً ، فان طبيعته تقتضيه ان يكون حكماً ، ذلك ان قيام العقيدة يقتضي قيام النظام الذي أعد لخدمتها ، ولا يمكن ان يقوم النظام الإسلامي إلا في ظل حكم إسلامي يماشي النظام الإسلامي ويؤازره ، إذ ان كل حكم غير إسلامي لا بد ان يؤدي إلى تعطيل النظام الإسلامي ، وإذا كان قيام النظام الإسلامي يقتضي قيام حكم إسلامي فمعنى

ذلك أن الحكم الإسلامي من مقتضيات الإسلام أو هو من طبيعة الإسلام .

الإسلام دين ودولة

والإسلام ليس ديناً فحسب وإنما هو دين ودولة وفي طبيعة الإسلام أن تكون له دولة ، ولو حذفنا النصوص الصريحة التي أوردناها فيما سبق والتي توجب الحكم بما أنزل الله ، لما غير ذلك شيئاً من طبيعة الإسلام التي تقتضي قيام الحكم الإسلامي والدولة الإسلامية ، فكل أمر في القرآن والسنة يقتضي تنفيذه قيام حكم إسلامي ودولة إسلامية لأن تنفيذه كما يجب غير مأمون إلا في ظل حكم إسلامي خالص ودولة إسلامية تقوم على أمر الله . وقيام الإسلام نفسه في الحدود التي رسمها الله وبينها الرسول يقتضي قيام دولة إسلامية تقيم الإسلام في حدوده المرسومة ، وذلك منطق لا يجحده إلا مكابر، إذ أن الإسلام لا يمكن أن يقوم على وجهه الصحيح في ظل دولة غير إسلامية لا يهمها ان يقام ، ولا يضرها ان ينتقص منه ، ولا يمنعها شيء من تعطيله أو الإنحراف به ، وإنما يقوم الإسلام على وجهه الصحيح في ظل دولة تقوم على مبادىء الإسلام ، وتتقيد بحدوده .

وأكثر ما جاء به الإسلام لا يدخل تنفيذه في اختصاص

الأفراد وإنما هو من اختصاص الحكومات وهذا وحده يقطع بأن الحكم من طبيعة الإسلام ومقتضياته وأن الإسلام دين ودولة .

فالإسلام قد أتى بتحريم كثير من الأفعال ، واعتبر اتيانها جريمة يعاقب عليها ، وفرض لهذه الجرائم عقوبات ، ومن هذه الجرائم القتل العمد وعقوبته القصاص : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ [البقرة : ١٧٨]. والسرقة وعقوبتها قطع اليد : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ [المائدة : ٣٨] . والقذف وعقوبته الجلد : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ [النور : ٤] . ولا جدال في أن تحريم الأفعال واعتبارها جرائم وفرض العقوبات عليها إنما هو من مسائل الحكم ومن أخص ما تقوم به الدولة ، ولو لم يكن الإسلام ديناً ودولة لما سلك هذا المسلك .

ولا شك أن القرآن لم يأت بالنصوص الخاصة بالجرائم عبثاً ، وإنما جاء بها لتنفذ وتقام ، وإذا كان القرآن قد أوجب على المسلمين إقامة هذه النصوص وتنفيذها ، فقد أوجب عليهم ان يقيموا حكومة ودولة تسهر على إقامة هذه النصوص ، وتعتبر تنفيذها بعض ما يجب عليها .

والإسلام يوجب المساواة بين الناس في قوله تعالى : ﴿ يا

أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجَعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ [الحجرات : ١٣] . وفي قول الرسول ﷺ : « الناس سواسية كأسنان المشط الواحد لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » وأخذ الناس بالمساواة داخل في اختصاص الحكومات ولا يدخل في اختصاص الأفراد .

والقرآن يوجب العدالة في الحكم : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ﴾ [النساء : ١٣٥]. والعدالة في الحكم من أخص شؤون الحكومات والدول .

والإسلام يحرم الإحتكار في قول الرسول ﷺ : « لا يحتكر إلا خاطىء » . ويحرم الربا في قوله تعالى : ﴿ واحلّ الله البيع وحرَّم الربا ﴾ [البقرة : ٢٧٥] . ويحرم استغلال النفوذ والرشوة في قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وانتم تعلمون ﴾ [البقرة : ١٨٨] . وتحريم الإحتكار والرّبا والاستغلال والرشوة من أول ما تعمل له الحكومات الصالحة ومن أهم إختصاصاتها .

والإسلام يفرض ضرائب على الأموال : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة : ١٠٣] . ويفرض في أموال الأغنياء حقوقاً للفقراء ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل

والمحروم ﴾ [المعارج : ٢٤] . ويحمل الثروات أحمالاً من الضرائب التي تنفق في سبيل الله وعلى ذوي الحاجة على ما رأينا في فصل المال ويقيد من في يدهم المال بقيود شتى ، وكل هذا من اخص أعمال الحكومات في أقدم العهود وأحدثها ، بل هو أهم ما يقيم الحكومات ويسقطها .

والإسلام يوجب ان يكون الحكم شورى بقوله تعالى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ [الشورى : ٣٨]. وقوله : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ [آل عمران : ١٥٩]. وإقامة حكم الشورى تقتضي قيام حكم إسلامي ودولة إسلامية ، ولو لم يكن الإسلام ديناً ودولة لما تعرض لشكل الحكومة وبين نوعها .

والإسلام بعد ذلك قد جاء بنصوص يصعب حصرها تنظم صلات الأفراد بالحكومات ، وصلة الحكومات بالأفراد وتنظم التصرفات والمعاملات من بيع وإيجار وهبة ووصية وزواج وطلاق إلى غير ذلك ، وتنظم الإدارة والاقتصاد ، وتحكم الفتن الداخلية والمنازعات الدولية ، والسلم والحرب والصلح والمعاهدات ، وتحكم كل شأن من شؤون الأفراد وشؤون الجماعات ، وتقيم الجماعة على أساس من المساواة والتعاون والتضامن الاجتماعي ، وهذه النصوص في مجموعها تكون دستوراً للحكم يبذ كل دستور وضعي عرف حتى الآن ، وتكون شريعة تحكم كل التصرفات هي أسمى ما عرف إلى اليوم من

تشريعات، وكل هذه أمور لا يقوم عليها ولا يمكن أن يضطلع بها إلا الحكومات والدول ، فإذا جاء بها الإسلام وأوجبها ، فقد جاء بالحكومة وأوجب قيام الدولة ، ما يجادل في ذلك عاقل ولا يستسيغ غير عقل .

وإذا ما قلنا أن الإسلام دين ودولة ، فقد يذهب الظن بالبعض إلى ان الإسلام يفرق بين الدين والدولة ، وهذا ظن خاطىء ، فان الإسلام مزج الدين بالدولة ، ومزج الدولة بالدين ، حتى لا يمكن التفريق بينهما ، وحتى اصبحت الدولة في الإسلام هي الدين ، وأصبح الدين في الإسلام هو الدولة .

فالإسلام يقيم شؤون الدنيا كلها على أساس من الدين ، ويتخذ من الدين سنداً للدولة ووسيلة لضبط شؤون الحكم وتوجيه الحكام والمحكومين .

والدولة المثالية في الإسلام هي الدولة التي تقيم أمور الدنيا بأمر الدين، فتأخذ رعاياها بما أمر الله ، وتمنعهم عما نهى الله : ﴿ الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ [الحج : ٤١] .

والدين في الإسلام ضروري للدولة ، والدولة ضرورة من ضرورات الدين فلا يقام الدين بغير الدولة ، ولا تصلح الدولة بغير الدين .

الحُكُومَة الإسْلامِيَّة

"وَظِيفتها وممّيزاتها"

- الحكومة التي تقيم أمر الله .
- منطق التجارب .
- وظيفة الحكومة إقامة أمر الله .
- مميزات الحكومة الإسلامية .
- نوع الحكومة الإسلامية .

الحكومة التي تقيم أمر الله

إذا كان الله جل شأنه قد أوجب علينا أن نتحاكم إلى ما أنزل على رسوله ، وأن نحكم به ، فقد وجب على المسلمين ان ينصبوا عليهم حكومة تقم فيهم أمر الله وترعاه ، ويتعبد افرادها بإقامة الحكم طبقاً لما أنزل الله كما يتعبدون بالصوم والصلاة .

والأصل في الحكومات انها ضرورة اجتماعية لا مفر منها ، فإذا كان الحكم يتميز بصفات معينة ، فقد وجب ان تتصف الحكومة القائمة عليه بنفس هذه الصفات ضماناً لنجاح الحكم ، فما يستطيع فاقد الشيء ان يعطيه ، وما يحسن القيام على الفكرة إلا مؤمن بها .

وعلى هذا فاذا وجب ان يقوم الحكم طبقاً لشريعة الإسلام

فقد وجب ان تكون الحكومة إسلامية ، يؤمن أفرادها جميعاً بالمبادىء التي يقوم عليها الحكم ويحرصون على العمل بها .

وإذا وجب ان يكون الحكم اشتراكياً فمن البلاهة ان يترك الحكم لمن لا يؤمنون بالإشتراكية .

وإذا وجب ان يكون الحكم ديموقراطياً فلن يصلح له حكام يؤمنون بالديكتاتورية .

ذلك هو منطق الناس ، وتلك هي طبائع الأشياء ، فمن أراد ان يقيم الإسلام بحكومة تتحاكم إلى غير شريعة الإسلام فإنما يعمل على تحطيم الإسلام .

منطق التجارب

ولقد اثبتت التجارب في البلاد الاسلامية أنه لا يكفي لإقامة الإسلام ان يكون الحكام مسلمين، وإنما يجب أن يتحاكموا إلى الإسلام ، ويتخذوا القرآن دستوراً للحاكمين والمحكومين ، وأمامنا البلاد الإسلامية كلها ليس فيها بلد واحد يقيم حكم الإسلام ويخضع له في كل الشؤون بالرغم من أن حكامها وأغلب سكانها من المسلمين .

بل لقد أثبتت التجارب أن الحكام المسلمين الذين يجهلون الإسلام ولا يعملون على إقامة أحكامه كانوا وما زالوا حرباً على

الإسلام وآلة طيعة في يد أعداء الله الذين يكيـدون للمسلمين والإسلام ، وفي عهود هؤلاء الحكام الجهال استبيحت حرمات الإسلام فحرِّم ما أحل الله وأحل ما حرم الله ، وانتشر الفساد في المجتمع الإسلامي وشاعت الفاحشـة ، وانحسر مـد الإسلام وذهبت ريحه ، وسيطر على بلاده وأهله من لم يكن يطمع فيهم بالأمس بل ولا يستطيع ان يدفع عن نفسه .

هذا هو منطق البشر ومنطق الواقع ومنطق التجارب كل ذلك يقضي بأن قيام الحكم الإسلامي يستوجب ان تؤلف الحكومات ممن يؤمن بالنظام الإسلامي وممن لا هم لهم إلا إقامة الإسلام وتثبيت دعائمه ، وسنرى فيما يـأتي أن هذا هـو منطق القـرآن نفسه .

وظيفة الحكومة: إقامة أمر الله

ولقد جعل الإسلام وظيفة الحكومة الإسلامية إقامة الإسلام حيث افتـرض القرآن في الحكـومة الإسـلامية ان تقضي على الشرك وتمكن للإسلام ، وأن تقيم الصلاة وتأخذ الزكاة ، وأن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، وأن تسوس أمور الناس في حدود ما أنزل الله ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم

من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ [النور : ٥٥]، وقوله : ﴿ الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ [الحج : ٤١].

والأمر بالمعروف هو الترغيب في كل ما ينبغي قوله أو فعله طبقاً للإسلام ، والنهي عن المنكر هو الترغيب في ترك ما ينبغي تركه أو تغيير ما ينبغي تغييره طبقاً لما رسمه الإسلام ، فإذا قامت الحكومة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أقامت كل ما أمر به الإسلام وهدمت كل ما يخالف الإسلام .

ولقد أوجب علينا القرآن أن نطيع الحكام والحكومات ولكنه أوجب على الحاكمين والمحكومين إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى حكم الله ، وأن يحكموا فيه بما أنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم[1] فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ [النساء : ٥٩]، ورد المتنازع فيه إلى حكم الله يقتضي أن تكون الحكومة والحكام قائمين على أمر الله حاكمين بما أنزل الله ورسوله . وإعطاء المحكومين حق منازعة الحكام ورد المتنازع فيه إلى أمر الله يقتضي أن يكون الحكام مقيدين بأمر الله لا يسمح لهم بالإنحراف عما أنزل الله .

---

(١) يفسر البعض « أولي الأمر » بالحكام ، ويفسرها غيرهم بأهل الشورى .

وإذا كانت الحكومات تقوم على طاعة المحكومين وكان من مبادىء الإسلام أن يطيع المحكومون أولي الأمر فيهم والقائمين على شؤونهم من الحكام ، فإن من مبادىء الإسلام أيضاً ان يخلع المحكومون طاعة الحاكمين إذا ما خرج الحاكمون على طاعة الله وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وبذلك ربط الإسلام طاعة المحكومين للحاكمين بطاعة الحاكمين لأمر الله ، فالحكومة الإسلامية يجب أن تقوم على أمر الله وليس لها بأية حال أن تنحرف عما أنزل الله وإلا فقدت حقها في الطاعة وبالتالي حقها في الحكم .

وإذا كان حق الحكومة في الطاعة وفي الحكم ثابتاً كلما كانت نازلة على أمر الله ، فيتعين أن تكون وظيفتها هي القيام على أمر الله والعمل بكتابه .

مميزات الحكومة الإسلامية

تختلف الحكومة الإسلامية عن كل حكومة موجودة في العالم الآن ، وعن كل حكومة وجدت من قبل ، فهي حكومة فريدة في نوعها متميزة عن كل حكومة غيرها .

وتتصف الحكومة الإسلامية بثلاث صفات لا توجد في

غيرها من الحكومات فهي أولاً : حكومة قرآنية ،وهي ثانياً : حكومة شورى ، وهي ثالثاً : حكومة خلافة أو إمامة .

الصفة الأولى :حكومة قرآنية

تتميز الحكومة الإسلامية بأنها حكومة قرآنية أي أنها خاضعة للقرآن وهو الكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

والقرآن هو دستور الحكومة الإسلامية الأعلى ، يحكم تصرفاتها ويحدد حقوقها وواجباتها بصفة عامة ، ويرسم لها الخطوط والمناهج العامة التي لا يصح لها أن تتعداها ، ويدع لها ما دون ذلك من المناهج والتفصيلات . كما أن القرآن في الوقت نفسه يبين حقوق الأفراد وواجباتهم ، ويحدد علاقتهم بالحكومة ومدى سلطانها عليهم ومدى خضوعها لسلطانهم .

ويتميز القرآن بميزات متعددة تخالف بينه وبين أي دستور آخر عرفه البشر ، ويهمنا من هذه الميزات ما يأتي :

١ ـ أنه كلام الله أوحى به إلى نبيه محمد النبي الأمي ليبلغه للناس نوراً يخرجهم به من الظلمات وهدى يعصمهم من الضلال ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فَيوحِيَ بإِذْنِهِ ما يشاء انه عليٌّ حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان

ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات والأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [الشورى : ٥١ ـ ٥٣] . ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ [الشورى : ٧] . ﴿ وأوحى إلي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ ﴾ [الأنعام : ١٩].

٢ ـ ان المسلمين مكلفون باتباع ما جاء به القرآن وبالإستمساك به ، وليس لهم أن يخرجوا عليه بأية حال ﴿ واتبع ما يوحي إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ [يونس : ١٠٩] . ﴿ واتبع ما يوحي إليك من ربك ان الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ [الأحزاب : ٢] . ﴿ فاستمسك بالذي أوحى إليك انك على صراط مستقيم ﴾ [الزخرف : ٤٣] . ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ [الأعراف : ٣] . ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾ [الأنعام : ١٠٦] .

٣ ـ أن القرآن لا يقبل التبديل ولا التعديل لأنه من عند الله ولا مبدل لكلمات الله ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا أئت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ [يونس : ١٥] . ﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾ [الكهف : ٢٧]: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل

لكلماته وهو السميع العليم ﴾ [الأنعام : ١١٥]. ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ [يونس : ٦٤].

٤ ـ أن القرآن لا يقبل الزيادة ولا يقبل النقص لأنه كمل وتم بوفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحي ، أو تم وكمل قبيل وفاته يوم أنزل الله قوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : ٣].

٥ ـ أن القرآن لا يقبل النسخ ، لما سبق ، ولأن الله جل شأنه ختم برسالة محمد ﷺ الرسالات ، وجعله خاتم النبيين ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ [الأحزاب : ٤٠]. ولأن البشر وهم مستخلفون في الأرض ليس لهم أن يخرجوا على أوامر الله الذي استخلفهم ، وليس في استطاعتهم أن ينسخوا كلامه أو يبطلوا العمل به ، فإن فعلوا فعملهم باطل بطلاناً مطلقاً لخروجهم على حدود وظيفتهم وتعرضهم لما ليس من شأنهم .

ونستطيع أن ندلل على عدم قابلية القرآن للنسخ من وجه آخر ، وهو أن القاعدة الأساسية في الشريعة الإسلامية وفي القوانين الوضعية هي أن النصوص لا ينسخها إلا نصوص في مثل قوتها أو أقوى منها ، أي نصوص صادرة من الشارع نفسه أو من هيئة لها من سلطان التشريع ـ على الأقل ـ مثل ما للهيئة التي أصدرت النصوص المراد نسخها ، فالنصوص الناسخة للقرآن

يجب أن تكون قرآناً من عند الله ، وليس بعد الرسول قرآن حيث انقطع الوحي ، ولا يمكن ان يقال ان ما يصدر من هيئاتنا التشريعية البشرية في درجة القرآن أو ان لها من سلطان التشريع ما لله وللرسول ، وعلى هذا فليس في طوق البشر أن ينسخوا كلام الله أو يعطلوا العمل به .

الصفة الثانية : حكومة شورى

جعل الله الشورى من لوازم الإيمان ، حيث جعلها صفة من الصفات اللاصقة بالمؤمنين المميزة لهم عن غيرهم ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [الشورى : ٣٨] ، فلا يكمل ايمان المسلمين إلا بوجود صفة الشورى فيهم ، ولا يجوز لجماعة مسلمة أن تقيم او ترضى إقامة أمرها على غير الشورى وإلا كانت آثمة مضيعة لأمر الله .

وأمر الله رسوله ان يشاورهم في الأمر ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ [آل عمران : ١٦٠]. وما أمر الله رسوله ﷺ بمشاورتهم لحاجة منه إلى رأيهم ، وإنما هي فريضة فرضها عليهم ، ففرض على الحاكم ان يستشير في كل ما يمس الجماعة وفرض على الجماعة ان تبدي رأيها في كل أمورها ، فليس للحاكم ان يستبد برأيه في الشؤون العامة وليس للجماعة ان تسكت فيما يمس

مصالح الجماعة ، وهذا يتفق مع ما يفرضه القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [آل عمران : ١٠٤].

وإذا كانت الشورى فريضة من الفرائض الإسلامية فإنها ليست مطلقة بحيث تمتد إلى كل أمر ، وإنما تجب فقط فيما لم يقطع فيه القرآن والسنة برأي ، اما ما قطع فيه القرآن والسنة برأي فهو خارج عن نطاق الشورى إلا ان تكون الشورى في حدود التنفيذ والتنظيم لما نص عليه القرآن وبينته السنة .

والشورى ليست مطلقة من كل قيد فيما تجب فيه ، وإنما هي مقيدة بأن لا تخرج عن حدود ما جاء به القرآن والسنة ، فلا يجوز بأية حال أن تؤدي الشورى إلى مخالفة نصوص التشريع الإسلامي او الخروج على روح التشريع ، ويجب دائماً ان تجيء الشورى مطابقة للتشريع الإسلامي ومتابعة لاتجاهاته وروحه .

والتقيد بالتشريع الإسلامي وباتجاهاته وروحه يقتضي ان يكون الحكام وأهل الشورى ، او اكثرهم ، ممن يلمون بالتشريع الإسلامي ويفهمون روحه واتجاهاته ، ومعنى هذا ان تنحصر الشورى فيمن تتوفر فيهم صفات معينة .

الصفة الثالثة : حكومة خلافة أو إمامة

رأينا في باب الإستخلاف أن الله استخلف البشر في الأرض وان الإستخلاف على ثلاثة انواع : استخلاف عام ، واستخلاف دول ، واستخلاف أفراد ، وقلنا ان استخلاف الأفراد هو الإستخلاف في الرئاسة ، وان المستخلف قد يسمى خليفة كما سمي داود عليه السلام ﴿ يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾ [ص : ٢٦]، وقد يسمى المستخلف إماماً كما سمي إبراهيم عليه السلام وبعض رؤساء بني اسرائيل ﴿ وإذا ابتلي إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ [البقرة : ١٢٤] ، ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ [الأنبياء : ٧٣] ، وقد يسمى المستخلف ملكاً ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ﴾ [المائدة : ٢٠]، ﴿ وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

والخلافة والإمامة والملك لا يقصد منها في نصوص القرآن إلا الرئاسة بمعناها العام ، ولا يقصد منها الدلالة على نظام معين من انظمة الحكم ، ذلك أن داود سمي في القرآن خليفة وسمي ملكاً ﴿ يا داود انا جعلناك خليفة ﴾ [ص : ٢٦]. ﴿ وقتل داود

جالوت وأتاه الملك ﴾ [البقرة : ٢٥١]. كما ان إبراهيم سمي في موضع إماماً ووعد ان يكون المهتدون من ذريته أئمة ﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ بينما وصف ذريته في موضع آخر بوصف الملوك ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾ [النساء : ٥٤]. ووعد بنو إسرائيل أن يكونوا أئمة بعد استضعافهم واستعباد فرعون لهم ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ [القصص : ٥] . فلما تخلصوا من ظلم فرعون وكونوا لأنفسهم دولة مستقلة أخذ موسى يذكرهم بنعمة الله عليهم ويقول لهم : ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ﴾ [المائدة : ٢٠]. فالخلافة والملك والإمامة مترادفات تدل على الرئاسة العليا للدولة ولا تدل على اكثر من ذلك .

ونظام الحكم الوحيد الذي يعرفه الإسلام هو الحكم القائم على دعامتين : احداهما : طاعة أمر الله واجتناب نواهيه ، والثانية : الشورى اي ان يكون أمر الناس شورى بينهم . فإذا قام الحكم على هاتين الدعامتين فهو حكم إسلامي خالص ، وليسمى بعد ذلك بالخلافة او الإمامة أو الملك فكل هذه التسميات تسميات صحيحة لا غبار عليها .

اما إذا قام الحكم على غير هاتين الدعامتين فهو حكم لا

ينتسب للإسلام بنسب ولا يتصل به بسبب ولو سمي خلافة أو إمـامة، واقـرب الأمثلة على ذلـك حكم الخلفـاء الأتـراك في عهودهم المتأخرة فقد كان رؤساء الدولة يسمون أنفسهم خلفاء وتسمى دولتهم دولة الخلافة وتسمى حكومتهم حكومة الخلافة ولكنهم كانوا هم ودولتهم وحكومتهم أبعد شيء عن نظام الحكم الإسلامي .

ولقد استقر أمر العالم كله قبل أن يجيء الإسلام على أن يكون نظام الحكم الملكي وراثيـاً يتوارثـه الأبناء عن الآبـاء ، وأصبحت لهذا النظام سمات وعلامات تميزه عن غيره من أنظمة الحكم ، فهو يتميز فضلاً عن الوراثة بتعالي الملوك واستعلائهم المستمر على الرعايا ، ويتميز بما يحيط الملوك أنفسهم به من الترف الـذي يهيىء لسقـوط الهمم وفسـاد الأخـلاق وتفشي المنكرات ، ويتميز أخيراً بأنه يؤدي بطبيعته إلى الفساد العام .

ولما كان هدف الإسلام هو الإصلاح والتسوية بين الناس وتوفير الخير وإشاعته بينهم فقد كره لهم التعالي ، وحرم عليهم ان يـريدوا الإستعـلاء ، كمـا حـرم عليهم كـل مـا يؤدي إلى الفساد ، ونبهَ المسلمين إلى ان هذه الصفات ليست من صفات المتقين المؤمنين في شيء ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يـريـدون علوّاً في الأرض ولا فسـاداً والعـاقبـة للمتقين ﴾ [القصص : ٨٣].

ولقد جاء الاسلام بالشورى ففرضها على المسلمين وألزمهم أن يجعلوا كل أمورهم شورى بينهم ﴿ وأمرهم شورى بينهم﴾ [الشورى: ٣٨]. والشورى تقتضي أن تختار الأمة رئيس الدولة وأن تعزله إذا جد منه ما يستلزم عزله ، وهذا وحده يتنافى مع ما استقر عليه نظام الحكم الملكي من توارث الحكم .

ولأن نظام الحكم الملكي كان عندما جاء الاسلام متميزاً بالوراثة وبالعلو في الأرض والافساد فيها فقد كره المسلمون أن يسموا أنفسهم ملوكاً ، وكان أول من كره ذلك هو الرسول ﷺ ، فقد روي عنه أنه قال لرجل وقف بين يديه فأخذته رعدة : « هون عليك فما أنا بملك ولا جبار » وجرى على ذلك خلفاؤه من بعده ، حتى اذا أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد أخذ أصحاب الرسول والتابعون يرمون معاوية خاصة وبني أمية عامة بأنهم حولوا الحكم الإسلامي إلى ملك عضوض والى حكومة كسروية ، أو هرقلية نسبة الى كسرى ملك الفرس وهرقل ملك الروم .

وإذا كان التباين بين الحكم الإسلامي في طبيعته ونظام الحكم الملكي في أوضاعه المستقرة قد اقتضى المسلمين أن يكرهوا تسمية أنفسهم بالملوك وتسمية نظام الحكم بالملك ، فقد اقتضاهم أيضاً أن يبحثوا في تسميات أخرى ، فأسعفتهم النصوص القرآنية الواردة في استخلاف الحكم بما يريدون ،

فسموا نظام الحكم بالخلافة أو الإمامة وسموا رئيس الدولة بالخليفة أو الامام .

وقد جرت العادة على أن تسمى امامة الحكم بالإمامة العظمى تمييزاً لها عما عداها من الإمامات كإمامة الصلاة ، وتبعاً لذلك يسمى رئيس الدولة بالإمام الأعظم أي الإمام الذي ليس فوقه إمام .

ويرى البعض أن لفظ الخلافة اختير لنظام الحكم الإسلامي وأن رئيس الدولة سمي بالخليفة ، لأن من جاء بعد النبي ﷺ خلف النبي في رئاسة الدولة فسمي خليفته وسمي منصبه بالخلافة بدليل أن المسلمين كانوا ينادون أبا بكر بخليفة رسول الله ، وهذا في الحقيقة ليس شيئاً ولكنهم راعوا في التسمية نصوص القرآن ، وسموا رئيس الدولة خليفة واماماً متأثرين بالنصوص ، ولقد كان أبو بكر رئيس دولة فاعتبر بنص القرآن خليفة واماماً ، وكان في الوقت نفسه خليفة لرسول الله لأنه خلفه في الحكم .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نلاحظ أن رسول الله ﷺ كان يجمع في رئاسته للدولة بين النبوة وخلافة الحكم ، فهو نبي باعتبار ما يوحى اليه وخليفة باعتباره رئيس الدولة فاذا خلفه أحد في الحكم فهو خليفته باعتباره خلفاً له ، وهو خليفة باعتباره

مستخلفاً من الله في الحكم .

والأصل أن البشر كلهم مستخلفون في الأرض استخلافاً عاماً ، فهم نواب عن الله عز وجل في الأرض وعليهم أن يقوموا على أمره ونهيه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقيموا أمر الله على ما ينبغي اذا كانوا أفراداً لا تربطهم رابطة ، ولا يجمعهم سلطان يخضع له قويهم ويفيء اليه ضعيفهم ، كما أن طبيعة الاجتماع والضرورات الاجتماعية تقتضي أن يقيموا حكومة تفصل بينهم في مشاكلهم وتنوب عنهم جميعاً في القيام بأمر الله ، وبما يرتبه عليهم واجب الاستخلاف في الأرض وواجب الاستخلاف في الحكم .

وإذا كانت الحكومة نائبة عن الجماعة لتقيم فيهم أمر الله ، ولتشرف على مصالح الجماعة ، وكان الخليفة أو الامام هو ممثل الحكومة الأول ، فانه يعتبر نائباً عن الجماعة كلها في وظيفة الخلافة التي جعلت لاقامة ما يجب على الجماعة كلها من أداء حق الله وانفاذ أمره ، وللفصل في خصومات الأفراد وكف قويهم عن ضعيفهم ونشر العدالة والمساواة بينهم ، وأخذهم بالتعاون والتضامن وتوجيههم الى الخير والبر كل ذلك في حدود ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه .

ولا يعتبر الخليفة نائباً عن الله جل شأنه الا بقدر ما يعتبر أي

فرد آخر على وجه الأرض ، وإذا قيل أن الخليفة بنيابته عن الجماعة التي تنوب عن الله يعتبر النائب عن الله فانه يرد على ذلك بأن نيابة الخليفة عن الله في هذا الوجه هي نيابة غير مباشرة ولم ينظر اليها في اقامة الخليفة ، وما أقامت الجماعة الخليفة إلا ليكون نائباً عنها ، وما استمد ولا يستمد سلطانه إلا من نيابته عن الجماعة التي أقامته والتي تملك حق مراقبته ومنعه من الخروج على حدود نيابته ، بل للجماعة أن تقيد تصرفاته ، وأن ترسم له الطريق التي يسلكها في تأدية واجب النيابة عنها ، وقواعد النيابة تقضي بذلك ، كما أن الاسلام يفرضه على الناس حيث أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمنع الحكام من الظلم والتعسف في استعمال حقوقهم ، ولمنعهم من الاهمال في اداء واجباتهم ، ولمراقبة الحكام والمحكومين في إقامة أمر الله وانفاذه على وجهه ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [آل عمران : ١٠٤].

وولاية الخلافة لا تتم إلا باختيار الجماعة للخليفة ، ليس ذلك لأنه منطلق الضرورات الاجتماعية الذي سبق بيانه ، ولكن لأن القرآن فرض على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ [الشورى : ٣٨].

فلا يصح أن يستأثر بأمر المسلمين أحد بغير رضاء

جماعتهم ، ولا تعتبر ولاية الخليفة قائمة الا بالاختيار ممن لهم حق اختيار الخليفة ، وبالقبول من جانب الشخص الذي وقع عليه الاختيار .

واختيار الخليفة على هذا الوجه يؤكد أن الخلافة ليست الا عقد نيابة يتم بين الجماعة والخليفة ، فتكل الجماعة الى الخليفة أن يقوم فيها بأمر الله ، وأن يدير شؤونها في حدود ما أنزل الله ، ويقبل الخليفة أن يقوم بالأمر في الجماعة طبقاً لما أمر الله .

وولاية الخلافة ليست محدودة بمدة معينة ، فما دام الخليفة قائماً بأمر الله وعلى قيد الحياة فهو خليفة، فإذا خرج على أمر الله ، أو قامت فيه صفة تستوجب العزل كان للجماعة عزله وتولية غيره ، وإذا مات انتهت ولايته بموته .

نوع الحكومة الاسلامية

قلنا فيما سبق أن الحكومة الاسلامية فريدة في نوعها ، متميزة عن غيرها ، وأنها تختلف عن كل حكومة موجودة في العالم الآن ، وعن كل حكومة وجدت من قبل ، وسنبين فيما يلي أن الحكومة الإسلامية لا يمكن ادخالها تحت أي نوع من أنواع الحكومات التي عرفها العالم ، وأنها حكومة لا مثيل لها .

فالحكومة الإسلامية كما عرفنا مقيدة باتخاذ القرآن دستوراً لها وملزمة بالنزول على أحكامه التي لا تقبل تبديلاً ولا تعديلاً ولا تعطيلاً ، فهي بذلك ليست من نوع الحكومات المستبدة المطلقة من كل قيد ، كما أنها ليست من نوع الحكومات القانونية ، لأن الحكومات القانونية تخضع لقوانين وأنظمة يضعها البشر وهم متأثرون بأهوائهم وشهواتهم ، والقوانين والأنظمة التي يضعها البشر قابلة للتبديل والتعديل والالغاء اذا ما قضت بذلك اهواء البشر وشهواتهم ، أما أحكام القرآن فهي من عند الله ، وهي دائمة إلى الأبد لا تماشي أهواء الحكام ولا أهواء المحكومين ، وانما تعدل بين الفريقين وتوفي كلا حقه في حدود العدل الخالص مع حفظ مصلحة الجماعة .

ولتكون الموازنة كاملة ينبغي أن تعلم أن نصوص القرآن جاءت بالأحكام الكلية ، ورسمت المناهج العامة للحكم والادارة ، وتركت ما دون ذلك لأولي الأمر ينظمونه بقوانين يضعونها ، ولكن هذه القوانين ، وهي من وضع البشر يجب أن يراعى فيها ألا تخرج على أحكام الاسلام العامة ، وأن تكون تطبيقاً دقيقاً لروح الشريعة الاسلامية ، فهذه القوانين التي يضعها أولو الأمر ليست في الحقيقة الا صدى القرآن وظله ، وهناك فرق كبير بينها وبين القوانين التي يضعها البشر غير مقيدين الا بآرائهم وأهوائهم ومصالحهم .

واذا كان من أخص صفات الحكومة الإسلامية أنها حكومة شورى فإنها لا تشبه في شيء الحكومات النيابية ، كما أنها تخالف في طبيعتها الحكومات غير النيابية ، وإذا كان أساس الحكومات النيابية في العالم هو الشورى إلا أن الشورى في الحكومة الإسلامية لا تشبه في شكلها ، ولا نوعها ، ولا الغرض منها ، تلك الشورى التي تقوم عليها الحكومات النيابية .

وإذا كان من وظيفة الحكومة الإسلامية أن تقيم الدين فانها لا تعتبر من نوع الحكومات الدينية التي يسميها الفقه الدستوري حكومات تيوقراطية ، اذ أن الحكومة الاسلامية لا تستمد سلطانها من الله وانما تستمده من الجماعة ، وهي لا تصل للحكم ولا تنزل عنه الا برأي الجماعة ، وهي مقيدة في كل أعمالها وتصرفاتها برأي الجماعة . والتزام الحكومة حدود الدين الإسلامي لا يغيّرُ من هذه النتيجة شيئاً ما ، لأن الدين الاسلامي يدعو الناس أن يعملوا لدنياهم قبل أن يدعوهم ليعملوا لأخراهم ، بل انه يرتب الحياة الأخرى على ما يعمله المرء في حياته الدنيا فهو دنيا قبل أن يكون دينا ، وهو أولي قبل أن يكون آخرة ، وإذا كان الاسلام قد حد للناس حدوداً لا يتعدونها ، ووضع لهم أحكاماً الزمهم اتباعها فانه لم يسلبهم حريتهم في العمل ، ولم يملك عليهم كل أمرهم ، بل ترك لهم أن يفكروا في أنفسهم وأن يدبروا حياتهم وأن يعملوا بوسائلهم ، وترك لهم

أن ينظموا أنفسهم وأن يرعوا مصالحهم الخاصة والعامة ، وأن يعدوا لمستقبلهم ما يشاءون من الخطط التي تؤدي الى رقيهم واسعادهم وتفوقهم .

ونستطيع أن نقول في غير تجوز أن الإسلام ترك للبشر الحرية كاملة فيما يأخذون وما يدعون ، ولم يقيدهم إلا بأن تكون حياتهم قائمة على الفضائل حتى يحيوا حياة فاضلة تسودها العدالة والمساواة والحب والتضامن وغير ذلك من المبادىء الانسانية العليا التي جاء بها الاسلام والتي يدعي العالم كله أنه يعمل لتحقيقها وما يستطيع أن يحققها بعد أن انسلخ عن الدين واتبع الأهواء والشهوات ، تلك المبادىء التي يتطلع العالم اليها ويعلم أن صلاحه يتوقف عليها ، تلك المبادىء التي نسميها انسانية وما عرفها أهل الأرض إلا عن طريق السماء ورسالات الأنبياء .

ولقد فرض الله الشورى على المسلمين وجعلها عماداً لحياتهم العامة ، ولو كانت الحكومة الاسلامية حكومة تيوقراطية لما كانت الشورى ، ولما ألزم الله رسوله أن يشاورهم في الأمر ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ [آل عمران : ١٥٩]. وهو في غنى عن مشاورة البشر بالوحي الالهي ، ولما ألزم الرسول نفسه نتائج المشورة المخالفة لرأيه الخاص كما فعل في غزوة بدر وغزوة أحد وغيرهما من المواقف ، وإنما الزم الله رسوله المشورة ليضع

للناس قواعد الشورى ، وألزم الرسول نفسه بنتائج المشورة ليسنّ لمن بعده أن يلتزم نتائجها ويتقيد بها .

ولو كانت الحكومة الإسلامية تيوقراطية لكان للخليفة أن يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء ، ولكن الخليفة وكل حاكم اسلامي مقيد ، فيما ورد فيه نص ، بنصوص القرآن والسنة ، وفيما لم يرد فيه نص بما تسفر عنه الشورى .

وإذا كان نظام الحكم الديموقراطي يشبه نظام الحكم الإسلامي فيما يوجبه من اختيار الحكام بمعرفة ممثلي الأمة وفيما يوجبه من قيام الحكم على العدل والمساواة وفيما يطلقه من حرية العقول والأفكار ، فان نظام الحكم الإسلامي يختلف عن الديموقراطية في أنه يقيد الحاكمين والمحكومين بقيود تمنعهم من الانطلاق وراء الأهواء وتحول بينهم وبين الخضوع للشهوات كذلك يختلف الاسلام عن الديموقراطية في أنه لا يترك مقاييس العدالة والمساواة وغير ذلك من الفضائل الانسانية في يد البشر يرسمون حدودها فيوسعونها تارة ويضيقون منها أخرى نزولاً على أهوائهم وخضوعاً لشهواتهم ، وانما يرسم الإسلام حدود الفضائل والمبادىء الانسانية ويضع مقاييسها ويخضع البشر لهذه المقاييس العلوية ، وبذلك حمى الاسلام الحياة العامة من الفساد ، وكبح الأهواء ، وأقام الحكم على أسس من الفضيلة يسلم بها الجميع ويحترمونها ولا يأنفون من الخضوع لها .

أما الديموقراطية فتترك للبشر أن يرسموا حدود كل شيء وأن يضعوا المقاييس للحياة البشرية ومن ثم جمحت بهم الأهواء والشهوات وتغلبت عليهم المصالح والمنافع وانقلبت المجتمعات الديموقراطية الى مجتمعات متحللة فاسدة تشيع فيها الرذائل وتعيش على مسخ المعاني السامية والفضائل الانسانية ، فالعدالة تقاس بمقياس القرابة والزلفى والحقوق لا تصل لأربابها الا عن طريق الرشوة والمحسوبية ، والتحرر العقلي معناه الانطلاق من الحياء والدين والأخلاق وهدم كل ما يميز الانسان العاقل عن الانعام والسوائم .

وإذا كان النظام الجمهوري يشبه النظام الاسلامي من حيث اختيار الرئيس الأعلى للجمهورية فانه لا يوجد أي نظام جمهوري يسمح بانتخاب رئيس الدولة لمدى الحياة كما يسمح بذلك النظام الاسلامي ، فضلاً عما سبق بيانه من وجوه الخلاف بين النظام الاسلامي والأنظمة الديموقراطية .

وليس بين النظام الإسلامي وبين الأنظمة الديكتاتورية أي وجه من وجوه المشابهة ، فالنظام الاسلامي يقوم على البيعة والشورى ، وعلى حدود مرسومة بين الحاكمين والمحكومين ، وعلى جواز عزل الحاكم ، ولا تسمح الأنظمة الديكتاتورية بشيء من ذلك .

ويختلف نـظام الحكم الاسـلامي عن أنـظمـة الحكم الملكية ، فما يورث الحكم والسلطان في الإسلام ، وإنما يترك للجماعة أن تختار للحكم من تراه أصلح النـاس له وأقـدرهم عليه ، وحسبنا دليلاً على ذلك أن النبي لقي ربه فما تولى الحكم بعده أحد من أهله وإنما خلفه أبو بكر ، فلما توفي لم يخلفه أحد من أهله وإنما خلفه عمر ، فلما قتل خلفه عثمان وهو من غير أهله فلما قتل خلفه علي وما كان من أهل عثمان .

وأخيـراً فـان كـل من يحـاول الادعـاء بـأن نـظام الحكم الاسلامي يماثل نظاماً معيناً من أنظمة الحكم التي عرفها العالم قديماً وحديثاً فانما يتكلف ويدعي ما لا يعلم ويبعد عن الحق ، فالنظام الاسلامي نظام فريد في نوعه أوجده الاسلام ولم يحاول أحد أن يقلد المسلمين فيه ، بل إن المسلمين أنفسهم لم يطبقوا النظام الإسلامي بعد وفاة النبي الا في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم حولت الأهواء هذا النظام الالهي الى ملك عضوض لا يتورع أن يعطل أحكام الاسلام ، ويحل حرمات الله ليمكن للأطفال والفساق والظلمة من رقاب المسلمين .

المحتوى